اسمها (ليليث).. هذا الاسم الرهيب يتكرر في معظم الثقافات السامية .. لا يجب أن تذهب بعيدًا إلى رومانيا كي تقابل مصاصي الدماء.. إنهم قد يكونون هنا .. في ذات الدولة .. في ذات البلدة .. في ذات الشارع .. في نفس البناية .. ربما في ذات الغرفة كذلك !!...
فقط كن حذرًا .. لا تنم وحيدًا ولا تهمل غلق النوافذ والأبواب ..
اليوم يواجه (رفعت) خطرًا من طراز جديد ...القصة تبدأ بداية طبيعية أو شبه طبيعية ثم ....

أسطورة مصاصة الدماء

Daydamony

رسوم:
تأليف:

المقدمة

هذا هو لقائي الثاني معكم على شبكة الإنترنت ..
سأحاول أن أكون مختصرًا .. انا د. (رفعت إسماعيل) .. أستاذ أمراض الدم الذي لم يعد كذلك .. صائد الأشباح الذي لم يعد كذلك ... مجرد شيخ عجوز يجلس في غرفة مكتب مغلقة على ضوء الأباجورة، يرتدي روبًا صوفيًا سميكًا وعلى رأسه قلنسوة من فراء تذكرك بصور (ستالين) في (سيبيريا).. وفي قدماه جوربان يمكن استخدامهما للمشي على القمر ..
يوجد قدح من الشيكولاته الساخنة يتصاعد منه الدخان .. هذه سن يعتبر احتساء القهوة فيها شروعًا في الانتحار..
أنا اخاف الموت .. أحيانًا أقنع نفسي بأنني لا أبالي بهذه الأمور وأن موتي لن يسبب خسارة لأحد، لكني من جديد اشعر بأن هذا نوع من التنطع .. ماذا ينتظرني هناك ؟.. لم اشعر بأنني مستعد لمواجهة خالقي قط ولا أحسبني سأملك هذا الاطمئنان أبدًا .. لم لا و (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه لم يمتلكه ؟
سأحاول أن أتناسى هذا القلق المزمن وأحكي قصة أخرى ..
هذا الفتى المتحمس من شبكة روايتي يجلس على الأريكة يصغي لقصتي كما أحكيها، ويعد بأنه سيقدمها حرفيًا على شبكة الإنترنت كما خرجت من فمي ..
حسن .. أنا لن أراها .. لا اعرف حتى من أين يفتحون جهاز الكمبيوتر، وأعترف بأنني حتى هذه اللحظة لم أعرف يقينًا نفع هذه الصناديق .. يبدو لي أنها خليط من الآلة الكاتبة والهاتف والآلة الحاسبة وآلة الألعاب وشاشة الفيديو وجهاز الكاسيت ...
على كل حال سوف احكي لهذا الشاب وسوف يقدم لكم ما حكيت ..
هذا هو ما اتفقنا عليه ..
المال ؟.. ماذا أفعل بالمال في هذه السن ؟.. المؤلف هو من يتقاضى المال بينما لا أنال أنا مليمًا واحدًا .. هذا هو الحال سواء نشرت على الورق أو على الإنترنت ..
الآن دعونا من هذا الهراء ولنبدأ القصة حالاً..
كنت قد وعدت بالكلام عن ،،....
عن ماذا ؟
إنه يقول لي:
ـ'وعدت بالكلام عن (ليليث)..'
فعلاً.. هذا صحيح .. (ليليث)... يا لها من قصة !!!

1-الحاجة إلى عمل شيء ما

ربما كان علي في البداية أن أضعك في الصورة بشكل أكثر دقة .. فأنت تعرف ما حدث وتعرف ما أدى إليه ما حدث، لكنك غير قادر على رسم الصورة النهائية ما لم تعرف كيف بدأ كل شيء ..
هذا هو ما يضايقني فيك .. صدقني .. أنت تثب إلى الاستنتاجات على الفور، ولا تعمل حسابًا للضعف البشري أو المصادفات أو تقلبات المزاج المعروفة، وهذا يجعل الحياة عسيرة .. كأنك تتعامل مع آلات مبرمجة لا تقترف الأخطاء .. دعك من عنصر الملل الذي هو عنصر مهم جدًا في حياة واحد مثلي .. وهناك عنصر آخر تلخصه تلك القصة التي حكوها عن (نيكسون):
اجتمعت إدارة (نيكسون) لمناقشة مشاكل التعليم والحاجة إلى تطوير المناهج .. الخ .. الخ .. وكلها مشاكل عسيرة لا يرجى لها حل قريب، وبعد الاجتماع الصاخب خرج الجميع راضين، فسأل الصحفيون عما توصل إليه المجتمعون، فقال المتحدث الرسمي:
ـ'اتفقنا على تصعيد الغارات على فيتنام الشمالية !'
هذا هو ما حدث !...لا كلمة واحدة عن مشكلة التعليم .. يصف المحللون النفسيون الموقف بأنه (الحاجة إلى عمل شيء ما The urge to do something).. أي شيء . الحركة في أي اتجاه لا يهم أين .. الحركة لمجرد الحركة ..
هذا هو ما يحركنا كثيرًا، وحينما نجلس في النهاية نستعرض تجربتنا الحياتية نندهش لأننا فعلنا كذا وكذا .. ولا يخطر ببالنا أن هناك قوة عاتية تحركنا اسمها (الحاجة إلى عمل شيء ما)..

بدأ كل شيء عندما قررت أن ألعب دور مستشار الزواج ..
لا تعجب !.. هذه المهنة معروفة ومحترمة في الخارج، وهي تلعب ذات الدور الذي يلعبه الأهل عندنا .. تلك الجلسات التي يلتف فيها أفراد الأسرة: طانط (هدى) وأونكل (محمود) حول الزوجين المتشاجرين لإصلاح ذات البين . الزوج يؤكد أن (عفاف) زوجة مستهترة لا تعرف قيمة زوجها، و(عفاف) تؤكد أن (إبراهيم) تغير وإنه لم يعد يعرف قيمة الإنسانة التي تشعل له أصابعها العشر شمعًا .. عندها يشعل أونكل (محمود) لفافة تبغ ويقول في ثقة:
'إذن هناك أرضية مشتركة يمكن البدء منها !'
وتقول طانط (هدى): ' نعم .. نحن متفقان على أن زوجك وغد وشيطان زنيم ولسوف يجاور أبا لهب وأبا جهل في جهنم، لكن دعينا نتناس هذا للحظة من أجل الأطفال'
في الخارج لا يوجد لدى أحد كل هذا الوقت، لهذا وجدت مهنة مستشار الزواج الذي يقصده الزوجان الراغبان في الانفصال ليقنعهما بالعكس ..مقابل مال طبعًا.

هذه مهنة أبعد ما تكون عن عالمي .. لكن من قال إنها ليست مهنة من لا مهنة له ؟.. أعرف عددًا كبيرًا من حلالي المشاكل في المجلات والصحف وقد مر بالطلاق ثلاث مرات .. أي أنه هو نفسه بحاجة إلى مستشار عاطفي .. لهذا لا أعتقد أن الأمر سيكون بهذه الصعوبة ..
كنت أعرف (إبراهيم) معرفة سطحية، وصممت على أن تظل كذلك، لكنه –الوغد –أصر على أن تكون معرفة عميقة ..لست أفهم لماذا يريد أي شخص في العالم أن يراني بملامحي الكئيبة وسعالي وعصبيتي في داره، لكن (إبراهيم) كان مصرًا على ذلك ..
هو طبيب مختص في أمراض النساء وهذا يجعله مشغولاً طيلة الوقت، لكن هذا سمح له بالوقت الكافي كي يدعوني إلى داره .. يمكن وصفه في بضع صفحات أو سطرين ويبدو أنني سأفضل الحل الأخير .. إنه من طراز (طويل القامة –حسن المظهر –جهوري الصوت –متأنق –مولع بالبشر)..
زوجته (عفاف) التي قدمها لي سيدة بيت بالمعنى الحرفي للكلمة .. وديعة مسالمة فخور بزوجها، وبطبيعة الحال لم تكن زوجتي معي ... لا أذكر السبب .. آه .. لأنني غير متزوج .. تذكرت الآن. لهذا لم أرها إلا مرة واحدة أثناء تناول الطعام وهي تحمل وعاء ثقيلاً يتصاعد منه بخار شهي الرائحة .. وقد قلت لها شيئًا على غرار:
ـ'سس .. ضض .. كك .. هم .. شن'
فهزت رأسها في وقار ..رأسها الذي تتوسطه خصلة شعر شائبة لا أعرف إن كانت كذلك أم هي لمسة أرستقراطية مفتعلة .. ووضعت الوعاء وبالمغرفة صبت لنا بعض الحساء في طبقين، ثم قامت بتفسيخ دجاجة عملاقة وابتسمت وانصرفت ..
قال لي وفمه مليء بالدجاج:
ـ'لن تعرف أبدًا قيمة الزوجة الرءوم..'
ـ'رءوم ؟'
ـ'أعني تلك التي ترعى (سبل أهل بيتها ولا تأكل خبز الكسل)..'
قلت وأنا أرشف الحساء:
ـ'معك حق .. لن أعرف أبدًا ..'
ولما انتهت الجلسة عدت لداري واعدًا نفسي بأنها آخر مرة .. لكن الدعوات تكررت عدة مرات، ولما لم يكن لدي ما أقدمه - لا أستطيع دعوة هذه الأسرة لعرين الذئب المتوحد الذي هو بيتي - فقد كنت أشتري شيئًا في كل مرة أدعى فيها .. شيئًا رقيقًا مثل علبة مبيد حشرات أو أداة لتطهير المرحاض ..
إلى أن جاء اليوم الذي بدأت فيه مشاجرة أمامي ..
تجاهلت الأمر وقلت لنفسي إن كل شيء في الكون يتشاجر .. تقول أمي رحمها الله إن (الأمعاء في بطنك تتشاجر مع بعضها) وهو قول ذو مغزى وإن كنت أجد صعوبة في تخيل اللفائفي مشتبكًا في صراع وحشي مع الاثني عشر ..

لكن الخلافات تصاعدت .. في كل مرة كنت أسمع أخبارًا سيئة ..
وكان (إبراهيم) يصل للمستشفى صباحًا منتفخ العينين، منكوش الشعر غير حليق الذقن ..
ولم يكن هذا من فرط العمل لأنه صار مهملاً في عيادته بشكل واضح ...
قلت وأنا أطلب له قدح قهوة:
ـ'يبدو حالك آية في السوء'
ـ'هو كذلك'
ـ'المشاجرات المعتادة ؟'
ـ'نعم .. إنني أعود للدار لأصرخ حتى يأتي موعد النوم .. لم أعد أتحمل ..'
عقدت يدي تحت ذقني وسألته:
ـ'والسبب في هذا التغير ؟.. على ما أذكر كانت زوجتك (ترعى سبل أهل بيتها ولا تأكل خبز الكسل)..'
قال مستسلمًا وهو يفك ربطة عنقها:
ـ'لم تعد كذلك .. لقد صارت وحشًا عاتيًا .. إنها مصرة على أن سلطة الرجل سلطة عتيقة انتهى عهدها ويجب أن تزول .. إن سبب توحش الرجل هو أنه لم يلق امرأة توقفه عند حده ... وتقول إنها لن تقبل مني أمرًا بعد اليوم ..'
آه .. !.. أعرف هذه النغمة .. نغمة الـ Feminist الشهيرة .. إن هذا الاتجاه –مساواة الجنسين- ليس سيئًا في حد ذاته، بل هو أقرب إلى العدل، لكنه يتخذ على الأرجح لدى النساء نغمة عدائية تجعلها أقرب إلى معاداة كل ما هو مذكر معاداة عنيفة ... ترى هذا في كتاباتهن وقصصهن وخطبهن .. الرجل وغد شرير زنيم شهواني وقح، وهن ضحايا بريئات والخطأ الوحيد هو أنهن ضحايا بريئات ..
هل بدأ هذا التنمر مع كتاب (الجنس الآخر) لـ (سيمون دو بوفوار) ؟.. لا أعرف حقًا .. لكنه موجود .. وفي أوائل السبعينات اتخذ صورة ثورة عالمية ضد سلطة الرجل أطلق عليها في الغرب اسم Bra burners .. ويبدو أن هذه النزعة لابد أن تمتزج مع الاسترجال بشكل أو بآخر .. ومنذ زمن سحيق عرفت الأساطير قصة مجتمع الأمازون الذي نبذ الرجال تمامًا .. لفظة أمازون Amazon نفسها تعني أنهن نساء تخلين عن صدورهن ليصير إطلاق السهام أسهل ..
كل هذا جميل ومفهوم، لكن من أين تسرب هذا الاتجاه للزوجة البسيطة الراضية بدورها البيتي ؟
ـ'كيف تسرب هذا الاتجاه لزوجتك البسيطة الراضية بدورها البيتي ؟'
مط شفته السفلى في غباء وقال:
ـ'لو عرفت لاسترحت .. لو كان مكانًا لذهبت وحرقته، ولو كان شخصًا لذهبت إليه وانتزعت حنجرته بأسناني .. لكن الأمر يبدو كأنه جاء من سماء صافية'
ثم نظر لي في توسل وقال:
ـ'أنت واسع العلم .. هل تعتقد أن الإنسان يتغير فجأة ؟'
ـ'ما لم يصب بمرض عقلي لا أعتقد .. لابد من تراكمات وأسباب .. وسل عن هذا أي كاتب دراما يجيد عمله'
ـ'والحل ؟'

قلت له الكثير من الهراء على غرار (حاول ثانية) و(ربما العيب فيك) و(بعض التعاون في البيت).. الخ ..
لكنه لم يكن على استعداد لسماع شيء من هذا .. والسبب ؟.. ليس لكونه جرب هذا كله وفشل، بل لأنه دكتاتور بطبعه .. دكتاتور وقد اعتاد على أن ينال أكثر من النساء وهذا التحول شيء لا يقبله ولا يفهمه ..
إن التجربة الآن مثيرة بحق .. شخصية دكتاتورية تصطدم بشخصية دكتاتورية .. (نيرون) يواجه (كاليجولا)، فإن لم ينحن أحدهما أو يتراجع للوراء فلسوف تدوي الرعود وتتوهج البروق .. ونحن نعرف أن أحدهما لن ينحني ..
بعد أيام جاء يخبرني أنها صارت تغادر البيت كثيرًا من دون إذنه، وإنها لم تعد تفعل أي شيء في البيت على الإطلاق ..
قال لي وهو يتحسس ذقنه النامية المنكوشة كالمجاذيب:
ـ'أعتقد أنني سأطلقها .. لقد صار هذا هو المخرج الوحيد..'
كنت أنا مذهولاً.. أتراه الحسد ؟.. أتراني حسدت هذين الزوجين السعيدين على حياة هادئة مستقرة لم أنعم بها ؟.. كيف أفعل ذلك وأنا وحيد باختياري ؟..
لكن كيف يمكن أن تفسر هذه التغيرات الدرامية في هذا الوقت الوجيز؟..
منذ ثلاثة أشهر كانت هي تلك الوديعة التي لا تبغي في العالم شيئًا إلا راحة زوجها واستغراقه في عمله .. إن لديهما ثلاثة أطفال مزعجين من طراز (جاذبو ذيل القط–ساكبو الحبر) إياه.. ويمكن لهؤلاء الثلاثة أن يحيلوا حياته جحيمًا لولا انها تتكفل بكل شيء وتقف كالسد تمنعهم من تدمير حياة أبيهم ..
كيف تغير كل هذا ومتى ؟
قلت له بصوت مبحوح:
ـ'هل يوجد حل آخر ؟'
نظر لي وابتلع ريقه ثم قال:
ـ'إلا إذا ...'
عندها عرفت الإجابة..
ـ'إلا إذا كلمتها .. إنها تثق بك كثيرًا !!'
صحت في غيظ:
ـ'يا سلام !.. تثق بي وهي لم ترني إلا لدقائق وفمي مليء بالطعام !'
ـ'أنا حكيت لها كثيرًا عنك .. أعتقد أنها ستصغي ..'
وهكذا وجدت أنني أتحرك في تلك الدوامة نحو البالوعة المعروفة باسم (الحاجة إلى عمل شيء ما)..

2-المدام غاضبة

قلت لها:
ـ'لا أعرف سبب ما حدث لكني أرجو أن يتوقف'
كانت عبارات عميقة كما ترى ..
وكانت هي جالسة في النادي في ضوء الشمس واضعة على عينيها نظارة سوداء، وهي تسلي برسم شيء ما في كراسة صغيرة .. الأمر الذي جعلني اتذكر دور (صديق البطل) في الأفلام العربية القديمة .. الرجل الذي لا دور له ولا هدف في الحياة سوى إصلاح ذات البين، حتى لتشعر انه بلا بيت أو عمل أو مشاكل ..
قالت في لا مبالاة:
ـ'السبب واضح .. لقد تحملته خمسة عشر عامًا وحان وقت إغلاق هذا الباب .. إذا أراد أن يلعب بقواعدي فبها ورحبت، وإلا فهو الطلاق ..'
ـ'وهل يفيق الناس فجأة بلا مبرر بعد خمسة عشر عامًا وبلا بوادر مسبقة ..؟'
ـ'لو اكتشف السجين انه خلف القضبان بعد خمسة عشر عامًا، فلا تثريب عليه إن هو حاول الفرار..'
ظللت أفكر .. قلت لها كلامًا كثيرًا عن مسئولية البيت المشتركة وسنة الحياة .. كلامًا كثيرًا تعرفه أنت ولربما كان لديك أفضل منه، لكن كان يجب أن أقوله .. في الحقيقة –رغم أنني أعيش على هامش الحياة –فأنا أؤمن أن سبب وجودك هو أن تأتي للعالم بمن هم أفضل منك على المستوى الديني والعلمي والسلوكي والصحي والشكلي .. الترقي هو سنة الكون، ومن الحمق أن نلتفت لأنفسنا أكثر من اللازم .. تأمل سنة الحياة ... ماذا يظفر به ذكر حشرة فرس النبي الذي ما إن يتم التلقيح حتى يفقد عنقه، ويتم إستخدام لحمه لتغذية الصغار ؟.. لا أطالب بشيء كهذا في عالم الواقع لكنه يريك السُنّة العملية التي تجري عليها الطبيعة .. الجيل الجديد هو الأهم وعلينا أن ننسى أنفسنا بعض الوقت من أجله..
صارحتها بهذا كله، فكان ردها عدائيًا كما توقعت ..
ـ'لا مانع من أن يصير أطفالي أفضل وأتمتع بحياتي في الآن ذاته '
ـ'لكنك تتحدثين عن الطلاق .. عن هدم ......'
ثم بحثت عن كلمة مناسبة .. فأردفت:
ـ'عن هدم وحدة التفريخ هذه ..'
ـ'فقط إذا أصر على لعب دور (شهريار) وهو مصر على هذا ..'
ابتسمت برغمي لأني تخيلت (إبراهيم) جالسًا على الطنافس بعمامة كبيرة، وخلفه (مسرور) السياف..
قلت لها إنني لا أعرف ما يقال بعد هذا.. لكني رجوتها أن تؤجل التفكير بعض الوقت ..

نصحتها كذلك بأن تدون مطالبها في ورقة .. رقم واحد كذا .. رقم اثنين كذا .. هكذا يمكنها أن ترتب أفكارها .. أحيانًا حينما نرتب ما نريد على الورق يبدو لنا الأمر أهون أو أسخف مما كنا نحسبه ..
وعدتني بذلك ..
بعد قليل رأيت ثلاث سيدات قادمات فلوحت لهن بيدها، وهتفت:
ـ'يجب أن تقابل صديقاتي ..'
نهضت وأحكمت أزرار سترتي كما يفعلون في السينما، وهززت رأسي برقة.. إنني أبدو رائعًا حينما تلتمع صلعتي في ضوء الشمس ..
ـ'هذه (صافي)... (ماهي).. (مي)... '
طبعًا هذه أسماء تدليل على ما يبدو .. على أن صديقاتها لم يكن منظرهن مريحًا جدًا .. لمسة عدائية لا شك فيها .. هن من الطراز الذي لا يلتهم أذنه إلا لأنها بعيدة عن أسنانه ..
وكان اللقاء باردًا كالثلج سمجًا كمذاق عصير (الجريب فروت).. وشعرت بمعدتي تتقلص ..
ـ'دكتور (رفعت) صديق الأسرة يا فتيات.'
نظرت لي إحداهن من أعلى لأسفل، ثم مدت يدها في حقيبتها لتخرج علبة تبغ، ورشقت لفافة بين شفتيها وقالت:
ـ'تشرفنا ..'
بينما قالت أخرى تضع طنًا من المساحيق على وجهها كأنها بطلة مسرح (كابوكي) ياباني:
ـ'كلهم أطباء هذه الأيام .'
جلست لدقيقة وأنا أشعر برغبة عارمة في الفرار، بينما انشغلت امرأتان في الثرثرة الهامسة، تصحبها ضحكات عالية تذكرني بضحكات الجالسين في مقهى (بعرة) عندما ينجح أحدهم في وضع الآخر في خانة اليك ..
قلت شيئًا ما عن الوقت الذي حان للانصراف .. ثم نهضت دون أن أسمع الرد ..
وغادرت النادي وأنا أفكر .. لابد أنها اشتركت فيه مؤخرًا .. لم تكن قط من رواد الأندية... وهؤلاء النسوة؟.. أعتقد أنهن من الطراز ذاته، ولربما كانت إحداهن هي التي أدخلت أفكار الثورة على الرجل في رأسها ..

كانت الأحداث تدور بسرعة ..
يبدو أن مشادات عنيفة تحدث، وأن الجيران صاروا يتدخلون كثيرًا ...
السيدة قد تركت البيت لا لتقيم عند أهلها، بل عند صديقة لها، وهو ما بدا لي غريبًا .. على أن أكثر ما أثار حزني هو (البامية).. نعم .. لا مزاح هنا .. لن أذوق ثانية تلك البامية الرائعة التي تطهوها .. من الغريب أنه لا يوجد سبيل في العالم لتذوق البامية لدى رجل غير متزوج لا يجيد طهوها ..
كان (إبراهيم) قد تحول إلى هيكل عظمي .. وصار أداؤه في العمل مثيرًا للشفقة إلى أن طلب إجازة، ويبدو أنه أغلق عيادته الخاصة لفترة ..
وجلست أقرأ عليه قائمة مطالبها:

أولاً.. الطهي والغسيل ليسا مسئوليتي .. عليك أن تعنى بنفسك في هذا الصدد .. ثانيًا.. يجب أن تترك دخل البيت معي لأقوم بترتيب المصروفات كما يتراءى لي .. ثالثًا .. دخولي وخروجي ليسا من شأنك .. أنا إنسانة ناضجة بالغة وأستطيع العناية بنفسي .. رابعًا .. يجب أن تنام في غرفة أخرى لأن شخيرك مزعج فعلاً.. خامسًا ......'

ثم نظرت له ونظر لي ..

سألني في تعب:

ـ'ما رأيك ؟'

قلت وأنا أتحاشى عينيه:

ـ'الأمر يشبه وثيقة استسلام (ألمانيا) للحلفاء بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى .. الوثيقة التي تم توقيعها في عربة قطار ..'

ـ'وماذا حدث بعدها ؟'

ـ'لم تنس ألمانيا هذه الإهانة وسرعان ما أفرزت رجلاً حانقًا شبه مجنون اسمه (أدولف هتلر).. لقد حارب بضراوة إلى أن استطاع أن يجعل فرنسا توقع وثيقة استلامها في ذات عربة القطار !'

ـ'هل تشعر بأنني (ألمانيا) ؟'

ـ'لا أعرف .. لكني متأكد من أن زوجتك لم تنتصر في حرب ما .. لا يوجد مبرر لهذا كله'

وساد صمت ثقيل..

في النهاية قلت له:

ـ'أنت تطيل عذابك .. أكره ما سأقول لكني بالفعل لا أرى سبيلاً آخر إلا الانفصال ..'

نظر لي بعينين حمراوين فارغتين، فقلت:

ـ'هل ترى حلاً آخر ؟'

قال:

ـ'ونهدم هذا البيت بهذه السهولة ؟'

ـ'لقد حاولنا كثيرًا .. يعلم الله أننا حاولنا كثيرًا .. لكنها مصرة .. لا اعلم أي شيطان سيطر على تفكيرها لكن لم يعد من حل آخر .. إن الوضع مهين لك فعلاً..'

ـ'والأطفال..؟'

ـ'سيفهمون عندما يكبرون .. فقط احتفظ بهذه الورقة كي تعفيك من الشرح !'

ظل شاردًا لفترة، وأدركت انه عاجز بالفعل عن اتخاذ قرار ..

لا أعرف السبب .. إن الأمور واضحة كالشمس الآن .. يبدو أن الأحداث دارت أسرع من اللازم بالنسبة له .. وعدت أسأله:

ـ'هل الأطفال عندك ؟'

ـ'عند والدتي .. لا أستطيع فهم ألغاز مثل تثبيت أزرار القميص أو إلباسهم الثياب الداخلية بحيث تكون الخياطة للخارج..و..'

ـ'خطأ .. الخياطة للداخل..'

'هذا يدل على أنك أحمق مثلي .. تقول زوجتي إن الخياطة للداخل تحتك بجلد الأطفال الرقيق.. دعك من معجزة الطهي .. و.... الخلاصة إنهم عند والدتي الآن .. إنها مسنة لا تقدر على العناية بهذه الشياطين، لذا وجدت امرأة تساعدها ..'
اقترحت عليه أن يقيم عند والدته بدوره لأنه طفل كبير هو الآخر .. أنا متأكد من أن خياطة ثيابه الداخلية للداخل لا للخارج .. يبدو بحاجة ماسة لمن يعنى به ..
لكنه أصر على أنه بحاجة إلى الوحدة والتفكير ...
فارقته وأنا أشعر بما نشعر به عند العودة من عزاء صديق ... لقد كنت في سرادق عزاء ذلك البيت الذي أحببته، ومن جديد اشعر بأنني كنت ذكيًا عندما لم أتزوج .. جهد بناء القصور على الرمال ثم مراقبتها حينما يزحف المد ليطيح بها . جهد دحرجة الصخرة لأعلى ثم مراقبتها تهوي من جديد كما كان الخواجة (سيزيف) يفعل..والسبب ؟.. الكارثة هي أنك لا تعرف السبب ..
إنها بعض آلام الوحدة لكنها تزول سريعًا ..
بعض الناس وجد صديقًا .. بعضهم عاش مع ذكرى .. بعضهم عاش مع مرآة .. بعضهم عاش مع كتاب .. بعضهم عاش مع أشباح ...
لكن النتيجة واحدة ..

3-الفقيــــد

قال رجل المختبر الجنائي وهو يلتقط صورة أخرى للجثة:
ـ'يبدو لي في حال سيئة بالفعل..'
قلت وأنا أقف على مسافة معقولة كي لا أفسد عمله:
ـ'لم يحدث هذا نتيجة الموت .. لقد كان في أسوأ حال منذ فترة .. الحقيقة أنه لم يكن يعرف كيف يعد لنفسه كوبًا من الشاي، وقد رحلت من كانت تعرف .. هذا الرجل كان متأهبًا تمامًا للموت جوعًا..'
ضحك الرجل ولفافة التبغ في فمه مما جعلها تهتز لا أكثر، وقال:
ـ'لا أحد يموت جوعًا لأنه لا يعرف كيف يعد الشاي .. إن المطاعم في كل مكان والفقيد كان يملك المال..'
قالها وهو يتأمل الغرفة ذات الأثاث الثمين .. هناك جهازا تسجيل من طراز فاخر .. وفي هذا الوقت من أوائل السبعينات لم يكن هذا الجهاز متاحًا للجميع، كما أن هناك جهاز فيديو من الطراز القديم الذي يشبه التوابيت في الحجم والصوت والمحتوى .. الفراش نفسه يبدو أنه كان في أفضل حال قبل أن يحتله هذا المشهد الرهيب ..
لقد رأيت الكثير من الموت في حياتي .. الكثير جدًا داخل المهنة وخارجها، ويبدو أنني تبلدت تمامًا لهذا المظهر .. بل صرت أتوقع تمامًا كيف سأبدو وأنا ميت، لكن مشهد (إبراهيم) الذي كان مليئًا بالحيوية وقد صار هذه الجثة مفتوحة العينين شاخصة البصر الراقدة بالمنامة على الفراش.. هذا المشهد جعل صوتي يختنق ..
سألت الرجل وأنا أبعد نظري عن المشهد:
ـ'متى حدث هذا في رأيك ؟'
مط شفته السفلى بمعنى عدم اليقين وقال:
ـ'ربما بعد منتصف الليل .. على الأرجح سيكون هذا دقيقًا ..'
ـ'والسبب ؟'
ـ'حتى هذه اللحظة لا أرى ما يريب.. لكني كنت أتوقع منك أن تجيب عن هذا السؤال ... يبدو الأمر لي طبيعيًا .. إن نوبات القلب تحدث كما تعلم..'
طبعًا أعلم . ليس هناك من هو أكثر علمًا مني بهذا الموضوع بالذات .. ما زلت لا أفهم كيف يعيش الناس حياتهم من دون نوبات قلبية .. بالنسبة لي صار هذا أسلوب حياة .. أستيقظ من النوم .. أمر بنوبات ضيق الشرايين التاجية إلى أن يأتي موعد النوم فأنام راضيًا عن إنجاز اليوم ..

لكن .. (إبراهيم) ؟
في هذا الوقت بالذات ؟

كلا .. لست أنا من اكتشف الجثة، فعلاقتي بـ (إبراهيم) لم تبلغ هذا الحد ولا أتردد عليه يوميًا ..
الحكاية هي أن لـ (إبراهيم) جارًا هو صديق مشترك بيننا، وقد اكتشفت الجثة تلك المرأة التي تعنى بأطفال (إبراهيم) المقيمين عند والدته، والتي يبدو أنها صارت تعنى بالبيتين في الوقت ذاته وكان معها المفتاح ..
جاء الجار على صوت صراخها الذي ذكره بصفارة قطار الصعيد، فرأى المنظر .. عاد إلى شقته واتصل برقمين: رجال الشرطة والعبد لله .. وهكذا وصل الاثنان إلى مكان الحادث في الآن ذاته .. وقد عرفني أحدهم فسمح لي بأن أقف أثناء الفحص بشرط ألا أمس شيئًا ...
كنت في حال سيئة لأن هذا السيناريو البائس هو آخر شيء جال بذهني .. من الصعب أن تنتهي المأساة بمأساة أخرى .. أن يفلس الرجل فيكون الحل هو أن يدهمه القطار .. لكن هذا ما حدث ..
كنا في الشتاء لهذا كنت مدثرًا في ثياب ثقيلة، لكني ظللت اشعر بالبرد .
بحثت عن مصدر هذا الشعور فوجدت أن شيش النافذة مفتوح وموارب .. لكنه راح يهتز ...
بدا لي هذا غريبًا بعض الشيء.. خاصة أن النافذة تقع مباشرة فوق الفراش .. أي أن الهواء البارد القادم منها لابد أن يجمد من يرقد على الفراش ..
وسألت صديقنا المشترك الذي وقف بعيدًا:
ـ'هل فتحت هذه النافذة لدى قدومك ؟'
هز رأسه أن لا وأردف:
ـ'هل عندما تجد جثة يخطر ببالك أن تفتح النافذة أولاً قبل أن تصرخ وتطلب النجدة ؟'
بدا لي هذا منطقيًا فسألته:
ـ'وتلك المربية أو الخادمة .. هل فتحتها ؟'
قال بنفس اللهجة:
ـ'هل عندما تجد المرأة جثة تفتح النافذة أولاً ؟'
شعرت بخجل لغبائي المطبق وابتلعت ما يجول بذهني من أفكار ..
كان رجال المختبر يقومون بعملهم بسرعة، وإن ساد جو عام من الاقتناع بأن الوفاة طبيعية .. ورأيت أن أدراج (الشوفنيرة) مفتوحة .. لقد فتحها احدهم ولم يغلقها .. دنوت منها وألقيت نظرة ..إن بها قمصانًا مكوية ومطبقة بعناية .. يبدو أن هذا عمل الكواء ما دامت الزوجة قد رحلت منذ فترة ..

هناك جوارب .. هناك ..... ما هذا ؟
ومددت يدي لأمسك بقلادة غريبة الشكل ...
قلادة يبدو عليها القدم ... لا أعتقد أنها ثمينة على الإطلاق .. لكني استطعت أن أميز تمثالاً صغيرًا لوحش فوق ظهره وحش عجيب ذو ثلاثة رءوس ... لم استطع التدقيق أكثر لأن الظروف لا تسمح ..
ما هذا بالضبط ؟
عندي حساسية معينة لهذه القلائد الغريبة.. إن لها دائمًا قصة ما وهذه القصة على الأرجح لا تبعث الراحة في النفس ...
نظرت حولي فلم أر أحدًا ينظر لي .. هكذا دسست هذه القلادة في جيبي ..
بعد ثوان فطنت لما قمت به .. هل تعتبر سرقة ؟.. لا أعتقد أنها ثمينة على الإطلاق .. هل يعتبر هذا إخفاء أدلة ؟.. لا أظن .. من الواضح أن رجال الشرطة لم يروا لها أهمية ما لأنهم فرغوا من فحص هذا الجزء .. لكن هذا لن يغير الحقيقة: هذا الشيء لا يخصني وليس من حقي أخذه ...
كدت أعيدها للدرج لولا أن وجدت اليد الصارمة لأحد الضباط على كتفي يطلب مني المغادرة ..
لا بأس .. سأعرف كيف أعيدها للزوجة مع قصة سخيفة عن كيف وجدت هذه القلادة ملقاة على باب الشقة فوضعتها في جيبي لعلها تهمهم .. هل هي لكم ؟.. جميل .. جميل .. إذن خذيها ولحسن الحظ أنني احتفظت بها ..
هكذا غادرت دار (إبراهيم) عالمًا أنها غالبًا المرة الأخيرة ..
وفي جيبي كنت اشعر بثقل هذه القلادة .. إنها أثقل من مجموع أجزائها ولا شك في هذا .. القيمة المعنوية للشيء تزيده ثقلاً.. كما يتحدث المصورون عن الكرة البيضاء التي تزن أكثر من الكرة السوداء المماثلة لها في الحجم في الصور الفوتوغرافية ..
ما هي هذه القلادة ؟.. لا يمكن أن نعتبرها مجرد ذوق أنثوي غريب وإلا فهذه السيدة جديرة بمعرفتها حقًا ..

في داري جلست على مكتبي فأضأت الأباجورة ورحت أتأمل هذه القلادة ..
إنها من معدن يشبه الفضة .. لكن علامات الصدأ والقدم واضحة جدًا .. وفي طرفها يتدلى تمثال بحجم علبة التبغ .. التمثال يصور وحشًا ما ذا ثلاثة رءوس .. رأس يشبه الكبش ورأس يشبه الثور أما الثالث فلا أعرف عما يعبر لكنه مخيف . الوحش يمتطي ظهر شيء يذكرك بالأسد .. لكنه أسد أشوري من تلك الأسود الملتحية ذات اللحية المضفرة .. أما الوحش ذاته فله أقدام إوزة .. والأغرب أن له ذيل ثعبان ..

وحش غريب، لكني اقسم على أنه تمثال لشيطان ما على غرار (بلفاجور) و(عشتار) ... الخ ..
بحثت عن تلك الموسوعة الكئيبة التي اشتريتها من أمريكا ذات مرة وفتحت الصفحات المصقولة التي تظهر رسوم الشياطين كما كانوا يتخيلونها قديمًا .. مجموعة من الصور المخيفة بعضها ساذج وبعضها يوحي بالقدم .. لكن لا .. هذا الموديل من الشياطين جديد تمامًا ..
ولكن كيف حصل عليه الزوجان ؟..
هل تجيب الزوجة عن سؤال كهذا ؟
حدسي يخبرني بأن هذا لن يحدث ..

4-فيمينيزم

قالت لي (عفاف):
ـ'إنها نهاية مؤسية، لكنه هو من اختارها .. '
كانت كلمات رقيقة كما ترى .. وقد رحت أرشف القهوة وأنا أفكر في إنهاء هذه الجلسة سريعًا .. لسبب ما صارت هذه السيدة تذكرني بسحلية الإجوانا .. فقط لو أن الإجوانا شرسة إلى هذا الحد ..
سألتها وأنا أضع القدح:
ـ'هل ستعودين إلى الدار ؟'
قالت وهي تضع ساقًا على ساق:
ـ'لا أعتقد .. لم يعد هناك ما يربطني بها..'
ـ'والأطفال ؟.. المفترض أن تعودي لتكوين وحدة تفريخ جديدة .. آسف على التعبير لكنني لا أرى الأمور إلا في هذا الضوء ..'
قالت في برود:
ـ'إنهم سعداء عند جدتهم .. أعتقد أن الأمور تم ترتيبها بشكل مناسب للجميع الآن .!.. '
ـ'لكن لابد للأطفال من أم ..'
صاحت بعصبية:
ـ'د. (رفعت).. الشأن شأني من فضلك .. أنت لن تعيش حياتي !'
ساد الصمت .. ومن جديد لم أجد ما يقال .. هذه المرأة لا تمر بحالة Feminism بل هي قد جنت تمامًا على الأرجح .. ليس من المجدي أن أناقش معها شيئًا ..
قلت لها آخر سؤال عندي:
ـ'ونفقات الحياة ؟.. إن معاش .....'
قالت باسمة:
ـ'إن لديه مدخرات لا بأس بها .. لا تنس أنه كان يكسب جيدًا .. لابد من ثمن لكل هذا الوقت الذي كان يقضيه خارج البيت.. وهذا الثمن في المصرف الآن وسوف أحصل عليه بعد إنهاء الإجراءات القانونية .. !'
هكذا هززت رأسي ونهضت عازمًا على الفرار..
فقط لأصطدم بتلك المرأة الممتلئة قليلاً.. على قدر من الجمال هي لكن عدوانيتها لا تخفى على أحد، ولربما تضفي عليها عنصر جاذبية ما .. كل الأفاعي والنمور رائعة الجمال .. كلنا يعرف هذا ..
كنت قد قابلتها من قبل، فتكفلت المدعوة (عفاف) بتقديمي لها:
ـ'دكتور (رفعت).. صديقتي (ماهي) التي تفضلت بمنحي المأوى !'

هززت رأسي بما معناه أننا التقينا من قبل، فقالت (ماهي) هذه:
ـ'أنا سعيدة بأنكما متفاهمان، لكني أرجو ألا تحكم علينا بهذه السرعة يا دكتور (رفعت)..
أنت رجل ولن تفهم هذه الأمور ببساطة .. النقطة هي أننا نحن النساء ظللنا نتحملكم منذ فجر التاريخ .. هناك لحظة انفجار ما لا بد أن تأتي .. بالنسبة لي هذه اللحظة جاءت منذ عشر سنوات .. بالنسبة لـ(فافي) جاءت اللحظة منذ أشهر ..'
طبعًا (فافي) هي (عفاف).. لا شك في هذا ..
قلت لها في ارتباك:
ـ'إن الرجال أطفال كبار .. لكن سحر المرأة يكمن في قدرتها على احتواء هذا الطفل .. إنها تأخذ كل شيء برفق وحنكة وتترك الرجل يعتقد أنه المنتصر .. (سميراميس) الملكة الأشورية جعلت زوجها يتنازل لها عن العرش ثم أعدمته .. لكنه ظل سعيدًا حتى اللحظة الأخيرة .. لابد أن رأسه المقطوع كان يبتسم في بلاهة'
ضحكت مثل معلمي وكالة البلح وقالت:
ـ'هذه هي العبارات التي يقولها الرجال منذ فجر التاريخ والتي ظللنا ننخدع بها .. لكن الصدفة هي أنك قابلت نسوة أذكى ممن قابلتهن من قبل .. هذا لسوء حظك ..'
ثم مدت يدها تصافحني بقبضة قوية وقالت:
ـ'تعال إلى النادي الصغير الذي كوناه في المعادي .. نلتقي هناك في الثامنة مساء كل ثلاثاء ..هناك يمكنك أن تسمع آراءنا وتناقشها إذا أردت .. إن العنوان هو .....'
وناولتني بطاقة صغيرة بها عنوان وأرقام هاتف ..
كان اللقاء سيئًا بحق .. فهي لا تبذل أي جهد من أجل الرقة أو المجاملة .. لهذا وجدت أن إنهاء الزيارة خير سبيل .. قلت كلامًا على غرار:
ـ'قف .. بي .. شش ... نن '
ثم اتجهت إلى الباب ففتحته .. للمرة الأولى أتذكر مكان الباب في بيت أزوره لأول مرة .. لكن الحافز كان قويًا ..
وبعد دقائق كنت في سيارتي أنطلق على طريق الكورنيش ...
لماذا لم أتحدث عن القلادة التي أخذتها ؟
لا أعرف .. شعرت بأنه من المفيد لي أن أبقيها معي بعض الوقت أكثر من هذا ..

في السابعة مساء وجدت أن اليوم هو الثلاثاء، لذا اتجهت إلى شقة (عزت) وقرعت الباب عدة مرات ..
فتح الباب مذعورًا كالعادة، فرسمت ضحكة مطمئنة عاتية على وجهي وقلت له:
ـ'هل ترغب في الخروج ؟'
ـ'لا أدري .. لقد استيقظت حالاً و...'
ـ'إذن ارتد ثيابك واحلق ذقنك .. إننا سنرى الليلة مجموعة من النساء الحسناوات !'
كان متشككًا ومعه حق .. بعد كل ما رآه معي لم يعد متأكدًا من أي شيء يتعلق بي، لكنه تعلم كذلك ألا يجادل كثيرًا ..
هكذا ارتدى أفضل ثياب عنده .. أعني أنه صار كالمهرج .. وصفف شعره، ثم اشار لي بمعنى أنه مستعد ..
هكذا انطلقت بسيارتي نحو المعادي .. قلت له ونحن في الطريق:
ـ'سوف تسمع كلامًا غريبًا .. لكني أرغب في ألا تجادل .. اكتف بالصمت والإنصات .. '
ـ'إلى أين نحن ذاهبون بالضبط ؟'
ـ'إلى ناد نسائي ..وأنا لا أرغب في أن اكون هناك وحدي'
قال وهو يضحك في بلاهة:
ـ'مثل أندية الروتاري والليونز ؟.. أنا قد عرضت تماثيلي في تلك الأماكن .. سوف نقابل الكثير من مدام (نازك) ومدام (إنجي) ونرى الكثير من الشراشف اليدوية التي خصص ريعها للأيتام ..'
قلت ضاحكًا وأنا أتفادى سيارة قريبة:
ـ'لا هذا ولا ذاك .. سوف نحضر اجتماعًا خصص لسب الرجال ..!'
ـ'أفهم هذا الطراز .. الحركة النسائية التي تعتبر الرجل أسوأ شيء عرفته البشرية ... '
ـ'تقريبًا .. لكن هذه الجمعية تملك قوة تأثير غير عادية .. يشبه الأمر دينًا جديدًا يعتنقه المرء فيصير متعصبًا .. بل هو أقرب إلى التنويم المغناطيسي .. وأنا أريد أن أفهم .. ما نوع المعاملة التي تجري هنالك .. لو كان الأمر كما أظن فلسوف أبلغ الشرطة .. '
ـ'شرطة ؟'
ضغطت على الفرملة في عصبية فارتطم رأسه بالتابلوه وقلت:
ـ'نعم .. لقد فقدت صديقًا في ظروف مؤسية بسبب هذه الجمعية، ورأيت بيتًا ناجحًا يتهدم .. لا أحمل لهذه الجمعية أية مودة .. لو اتضح أن الأمر نوع من غسيل المخ فلسوف أعرف كيف أوقف هذا النشاط .. '

توتر وراح يرقب الطريق في قلق ..
-

لم تكن الرجلين الوحيدين كما تمنيت .. كان هناك ثلاثة رجال وشاب يقول إنه صحفي .. وقد وجدنا منضدة بعيدة جلسنا إليها (مزجر الكلب) بعيدًا عن المناضد الأخرى .. كانت هناك منصة صغيرة ومجموعة من المناضد المتناثرة .. على كل منضدة شرشف أحمر اللون ودورق ماء بلوري وكوبان .. وكان هناك ساق ذكر يسألك عما ترغب في شربه .. وأدركت أنهن استخدمن رجلاً لأسباب واضحة طبعًا، ودعم استنتاجي هذا أنهن كن يعاملنه بغلظة وقرف شديدين ..
أدركت كذلك أن هذه القاعة هي مدخل الفيلا وقد تمت إعادة ترتيبها لتبدو أقرب إلى قاعة اجتماعات .. وقد درت بعيني في الموجودات فأدركت أنهن جميعًا يرمقننا بفضول . هذا ليس غريبًا .. الفتاة الوحيدة التي تجلس في محاضرة كل روادها ذكور سوف تنال ذات العدد من النظرات الفضولية .. أكثر النظرات كان عدوانيًا كذلك .. معظم الحاضرات كن في العقد الرابع أو الخامس مع ذات لمسة الجمال الواضحة .. وإن التقت عيناي بعيني الزوجة (عفاف) فهزت رأسها في ثقة وأناقة .. بعد قليل التقت عيناي بتلك الـ (ماهي) فضحكت في وحشية ..
بعد قليل صعدت إلى المنبر سيدة في الخمسين من العمر، وقالت في لهجة مرحة:
ـ'إن العدد يتزايد وهذا يسرني .. '
ثم نظرت إلى المنضدة التي جلسنا إليها وقالت:
ـ'بل إن (بعضهم) معنا .. ويبدو أنهم اقتنعوا بأفكارنا !'
كان هذا أقوى مني .. الدعابة التي لن أفوتها مهما حدث، لذا قلت في برود:
ـ'لسنا (هم) بل نحن (هن) .. بعد فترة من رفض الذكر تتحول المرأة إلى رجل .. هذا ما حدث لنا!'
لم يضحك أحد .. وقالت المرأة متجاهلة ما قلت:
ـ'في كل يوم تكتشف نساء أخريات الخدعة الكبرى التي يمارسها الرجل عليهن .. إنه ينال كل شيء .. وهي ؟.. هي مجرد خادمة في البيت لا تنال أجرًا كالخادمة .. لماذا ......؟'
لن أطيل عليك ..
لقد راحت تسرد ذات الحجج والبراهين التي نعرفها جميعًا .. بعضها منطقي ويروق لي، لكن أكثرها يقوم على رفض الذكر بالكامل .. إنها تحلم بمجتمع يصير فيه الرجل مجرد ظل .. مجتمع (أمازون) حقيقي لا فائدة فيه للرجال إلا للإنجاب.. بعدها يعودون إلى مرتبة الخدم ..
هب أحد الرجال الجالسين معنا غاضبًا وراح يجادل ..

ونظر لي (عزت) مذعورًا يسألني الإذن في الرد فأشرت له أن يهمد قليلاً..وظللت كما أنا مسترخيًا في مقعدي عاقدًا ذراعي على صدري ..
هناك من يحبون الجدل لمجرد الجدل .. من الواضح أن هذه المجموعة متعصبة .. ويجب أن أعترف أنني طيلة حياتي الطويلة لم أر قط شخصًا يقتنع برأي شخص آخر بعد أي جدال .
أتمنى لو وجدت الشخص الذي يقول في تواضع: معك حق .. لقد كنت مخطئًا ..
لكننا نعتقد أن آراءنا جزء من كرامتنا .. جزء من وجودنا .. وهذا يقودنا إلى كوارث طيلة الوقت .. تذكر أن كفار قريش كانوا يعرفون أن الرسول (ص) كان نبيًا حقًا لكن أكثرهم لم يشأ الاعتراف بالخطأ.. وبعضهم استكبر أن يأتي نبي من بني (هاشم)... فهل نحن حقًا بعيدون عن كفار قريش إلى هذا الحد ؟
هكذا رحت اتابع المناقشة عالمًا أنها من الطراز الذي يحاول فيه كل طرف إقناع الآخر بالغباء .. وقلت لنفسي لماذا لا يخرس هذا الأخ ؟.. أنا لم آت لأستمع إليه ..
بعد ساعة بدا أن الاجتماع انتهى .. فنهضت شاعرًا بأنني يجب ان أكره نفسي وأحتقرها للأبد لأنني رجل..
لم اسمع شيئًا يريب .. سمعت ما توقعته لكني كنت آمل أن تكون الأمور أسوأ...
على باب هذا النادي –وأنا أحلم باستنشاق الهواء الطلق –قابلت (عفاف).. سألتني في مرح:
ـ'كيف الحال ؟.. هل راقت لك آراؤنا ؟'
قلت وأنا أستند على ذراع (عزت):
ـ'جدًا .. إنني أكاد أبكي تأثرًا .. لو كنت تعرفين طبيبًا يحول الرجال إلى نساء فلتخبريني بعنوانه ..'
قالت في خبث:
ـ'المفترض أن هذه المعلومات معروفة لك .. لكنك ستكون امرأة غير جذابة على الإطلاق .'
ثم سألتني بلهجة عارضة:
ـ'بالمناسبة .. قلت إنك كنت في الدار عندما جاء رجال الشرطة .. هل أخذوا شيئًا من هناك ؟'
ـ'مثل ماذا ؟'
قالت بذات اللهجة العارضة:
ـ'أي شيء .. شيء من محتويات (الشوفنيرة) مثلاً...؟'
نظرت لها في حيرة وقررت أن أتظاهر بالغباء ..
قلت لها باسمًا:
ـ'لا .. لو فعلوا هذا لعرفت .. '
ثم قررت أن أدس طعمًا ما فأضفت:
ـ'كانت هناك قلادة .. قلادة لا أهمية لها .. أعتقد أنها كانت ملقاة على السجادة .. لا أذكر أين وضعتها .. لابد أنها فقدت في عملية التنظيف ..'

نظرت لي نظرة ثابتة .. عيناها تقولان بوضوح تام: 'أنت كذاب أيها السافل ..إنها معك..!' ..
أما أنا فرددت عليها بنظرة من طراز : 'نعم .. أنا أكذب لكن كيف يمكنك إثبات العكس ؟'..
كذاب .. نعم .. أنا كذاب .. لص .. نعم .. أنا لص.. لكني سرقت مجرمة .. لماذا لم تتوقف أسطورة (علي بابا) كثيرًا عند موضوع سرقة مجوهرات اللصوص التي قام بها البطل (علي بابا) ؟..
قالت وهي تصافحني بمودة مفاجئة:
ـ'سوف نلتقي ثانية يا دكتور .. ثق بهذا ..'
ـ'هذا ما أتمناه !'
وفي السيارة سألني (عزت) عن معنى هذا الذي رأيناه .. قال لي:
ـ'في رأيي أنهن مجموعة من النساء المخبولات لا أكثر ..'
قلت وأنا أدير المحرك:
ـ'وفي رأيي أنهن لسن مخبولات إلى الحد الذي يوحين به .. وهذا ما يثير قلقي ..'

5-إلى البالوعـــة

عندما يدق الهاتف وأنت نائم تشعر بأنه يأتي من أعماق سرداب سحيق بعيد .. كأنه يأتي من عصور ما قبل التاريخ، ومن حفرة تركها القمر وهو ينطلق للفضاء من مكانه في المحيط الهادي ..
نهضت لأرد وأنا أترنح .. البلاط بارد جدًا على قدمي الدافئتين..
كان صوت امرأة يسألني:
ـ'السابعة صباحًا !.. أما زلت نائمًا ؟'
قلت لها وأنا لا اعرف يقينًا من أنا:
ـ'لأنني أنام في الخامسة صباحًا .. أي أن الأمر يشبه أن أوقظك في الثانية صباحًا ..و ...من أنت ؟'
ضحكت في ثقة وقالت:
ـ'على فكرة لست ممن ينمن مبكرًا .. أنا (عفاف).. '
(عفاف) ؟.. لا أعرف واحدة بهذا الاسـ... آه .. الآن استعيد جو المشاجرات الزوجية والبامية وتلك الندوة الشنيعة .. قلت لها:
ـ'مدام (عفاف).. أنا آسف ..لم أتعرف الصوت ..'
قالت ضاحكة:
ـ'لا مشكلة .. على فكرة أنا لم أنم بعد .. '
ـ'والسبب ؟'
ـ'من يدري ؟.. ربما كنت أفكر في شخص ما ..هل تعرف من هو ؟'
قلت في غباء:
ـ'لا ..'
قالت في جرأة:
ـ'كنت أراقبك أثناء تلك الندوة .. لم تبد سعيدًا لكنك كذلك لم تبد غاضبًا .. أنت رجل تفضل أن تستمع أولاً.. وهذا لعمري طراز نادر من البشر .. هل تتخيل أنني عندما عدت لداري ظلت صورة واحدة تلاحقني .. صورتك وأنت تتابع المحاضرة وتخفي أفكارك .. أحب الرجل الذي يخفي أفكاره..'
كان جهاز كشف المعادن الحساس في داخلي يعمل بسرعة .. هذا نوع من الاعتراف بالحب لا شك فيه .. هذه المرأة تهيم بي حبًا ولم تنم ليلتها .. القاعدة الصارمة لدي هي: لا يمكن أن تحبني امرأة بكامل قواها العقلية .. ببساطة لأنني لا أملك أية مؤهلات لذلك .. هناك استثناء واحد اسمه (ماجي) وهذا يعود لأسباب طويلة منها الذكريات المشتركة ومنها

أنها أعطت نفسها الوقت الكافي لتحبني .. أما من لا تعرفني جيدًا فمن المستحيل أن تحبني .. الأرجح أن تكرهني وتكره الهواء الذي أتنفسه ..
ثم .. ألم تكن هذه السيدة من كارهات الرجال ؟.. ماذا تجنيه من رجل جديد ؟
الاستنتاج المنطقي هو: إنها تلعب بي .. والسبب ؟.. لماذا الآن بالذات ؟
قالت ضاحكة وهي لا تسمع أفكاري:
ـ'اسمع .. سأتركك تنام الآن لكني أريد أن ألقاك ..'
ـ'تلقين من ؟'
ـ'ألقاك يا أحمق .. هل وصلت المعلومة ؟... اختر مكانًا هادئًا .. ما رأيك في كافتيريا (.....) ؟.. '
قلت وأنا أحاول أن أضع قدمي العاريتين على طرف البساط حتى لا تتجمدا:
ـ'لا .. هذا لا يناسبني ..'
ثم أضفت في حزم:
ـ'سيدتي .. أنا لا أنوي أن أكون مادة للتسلية .. وحتى لو افترضنا جدلاً أنك تتحدثين بصدق فإن آخر امرأة يمكن أن انجذب لها في العالم هي أرملة (إبراهيم) وأم أطفاله .. ليكن هذا واضحًا .. لو أردت عوني فإنني أرجو أن تنسي هذا الكلام الفارغ وإلا فأنت تطالبينني بالابتعاد نهائيًا..'
كان هذا فظًا لكن البلاط كان باردًا وكنت أرغب في إنهاء هذه المحادثة سريعًا قبل أن أصاب بقضمة الصقيع ويبتروا قدمي .. إننا نتصرف احيانًا لا من وحي عقلنا بل من وحي أجسادنا .. ولكم من صداقة هدمت لأن احد الصديقين كان يعاني حموضة زائدة أو إمساكًا مضنيًا .. في رواية (الغريب) لـ (كامو) قتل بطل القصة رجلاً عربيًا لأن الشمس كانت حارقة والذباب يضايقه .. هكذا ضغط الزناد ولم يستطع بعد هذا أن يفسر للمحكمة كيف أن الذباب هو الذي جعله يقتل العربي ..
قالت لي وهي تضع السماعة:
ـ'كما تشاء !'
وتثاءبت كفرس النهر .. سوف أنام طويلاً وعندما اصحو سأعيد تقييم الموقف ...
هل كان من الأفضل أن أجاريها لأفهم ما تعنيه أم ......؟

في الخامسة صباحًا نفد الوقود الذي تستعين به أعصابي ..
كان يومًا طويلاً مرهقًا .. استيقظت في الواحدة بعد الظهر .. لكن ما تلا ذلك من أعمال جعل الوقود ينفد سريعًا .. ويجب أن اعترف بأنني لم أتمكن من الجلوس إلا في الثالثة صباحًا..
ماذا كنت أفعل ؟.. هذا ليس من شأنك طبعًا .. مواعيد ذات طابع طبي .. موعدان مع صديقين .. موعد مع (كاميليا) صديقي الذكي المهذب (لو كنت من قرائي فأنت تعرف لماذا أستعمل صيغة المذكر).. لا شيء فيما عدا هذا ...

جلست في الفراش ورحت أحاول حل الكلمات المتقاطعة في الجريدة .. وهو شيء مستحيل مع حالتي العقلية الحالية .. خمسة أفقي ... ابتلعه الحوت من خمسة أحرف (معكوسة).. (يونس) عليه السلام ؟.. لكنه من أربعة أحرف .. استكملت حل الصفوف وعدت أحاول مطالعة الاسم (س ي ن و ي) ... كتبت (س ي ن و ي) بخط كبير على هامش الجريدة .. معكوسة ؟.. أي أن الاسم (يونيس) .. وهذا يدل على أن مؤلف الكلمات المتقاطعة لم يكن أصفى عقلاً مني .. لقد وجد نفسه في ورطة خمسة حروف لا يعرف ما يفعل بها فقرر أن يضيف الياء إلى الاسم .. ربما لن يلاحظ أحد .. أنا لاحظت ..!.. أي هراء هذا !

هكذا غصت في الفراش أكثر وتثاءبت كالوشق ثم اندسست تحت الغطاء الدافئ .. إننا في زمهرير الشتاء لهذا يعني الدفء النعاس والعكس صحيح .. تقضي بعض الوقت حتى يذوب الثلج حول قدميك ثم يبدأ الدفء يتسرب ببطء لذيذ، وسرعان ما تأتي الأحلام معه، وهي في البداية مضطربة مجنونة يجسدها (بريتون) وكل الأخوة السرياليين .. ثم تتخذ شكل الحلم المعتاد ..

كنت قد بدأت في الأحلام المنتظمة الأرسطوطالية .. أي التي لها بداية ووسط ونهاية ..

عندما شعرت بذلك التيار البارد في الحجرة ..

كنت نائمًا على ظهري أغط بصوت عال ... والبرد يتسرب إلى الحلم ليعطيه طابعه .. ربما كنت في (سيبريا) أحارب الدببة، أو كنت في حقل مقفر في قريتي أفر من شيء ما .. شيء لا اتمنى معرفة كنهه ..لا اذكر بالضبط ...

لكني كنت أغط ..

كنت أغط ...

وفي الوقت ذاته يتقدم رجل الثلوج المخيف مني .. البرد يتساقط من فرائه، وهو يخور .. ثم يجثم فوقي وأنا نائم على ظهري .. إنه يبغي عنقي ..

هذا كابوس .. أعرف أنه كذلك .. التعساء الذين يتناولون عشاء دسمًا وينامون على ظهورهم .. إن الكوابيس تزورهم ..

الجاثوم .. الشيء الذي يتسلل للنيام على ظهورهم ليلاً ليجثم فوقهم .. عندها تتسرب منهم الحياة .. أنا عرفت الجاثوم من خطاب رهيب أرسله لي مدرس شاب لابد أنه (نكرومانسر) محترم الآن ..

في كل ثقافة هناك من يجثم على النيام ليلاً.. لابد أن هذا ..

ثم فتحت عيني ...

كانت الإضاءة خافتة لكني استطعت أن أراها ..
لم تكن كائنًا بشريًا .. كانت شيطانًا ..
العينان تتوهجان باللون الأحمر في الظلام .. هل هو لونهما أم أن الأحمر يشع منهما فعلاً ؟..
الشعر منفوش كشعر (ميدوسا) .. والفم مفتوح عن أسنان حادة كلها .. لا ليست كأنياب الثعبان بل كلها حادة مشرشرة ..
كانت خفيفة الوزن لكنها تجثم فوقي وأنا عاجز عن الحركة..
إن يديها الباردتين تحتويان رأسي في نوع من الحنان الحازم ..
إنها حقيقة ولست أتخيل !
كل هذا يمكن قبوله على مضض، لكن ماذا عن الشيء الذي يخرج من فمها كأنه ممص طويل مدبب يتجه في شوق ونهم إلى أوردة عنقي ؟
رأيت كيف يلتهم ثعبان البوا فريسته فيخرج قصبته الهوائية من تحت جسد الفريسة إلى الهواء الطلق كي يستنشق الهواء مباشرة .. المشهد الذي لابد أنه يقتلك رعبًا قبل أن يقتلك الثعبان !
إنها تفعل الشيء ذاته !
من هي ؟.. لا أعرف .. هي قاتلتي وكفى ....
وشعرت بالثقب في وريد عنقي .. الوريد الودجي الداخلي بالذات ..
كانت تعمل في نشاط وكفاءة .. وكانت صامتة تمامًا برغم أن الأمر يستأهل بعض الزئير أو الخوار ...
حتى أنني لم استطع الحركة أو الكلام .. فقط حركت ذراعي في وهن لكني لم أستطع رفعهما إلى مستوى أعلى من الفراش ..
صوت الامتصاص يثير الغثيان ..
وفي اللحظة التالية أدركت أنني أتسرب من هذا العالم ...
هل الصدمة العصبية قتلتني أم قلبي الواهن؟.. تفاصيل لا تهم إلا الطبيب الذي سيقوم بتشريحي ...
أتسرب .. كبالوعة انتزعت سدادتها ...
إلى أين ؟
ترى هل أعود ؟

6-أساطير سامية

كلا .. لم أمت لو كنت قد لاحظت هذا ..
كنت الآن راقدًا في الفراش في ضوء الشمس المتسرب من الشرفة المفتوحة ..
فوضى عامة في كل الغرفة والفراش ذاته في حال يرثى لها ..
كان هذا كابوسًا .. كابوسًا يعلمني ألا أتناول الزبادي والجبن في العشاء .. لكن ماذا آكل إذن ؟.. لا أتصور وجبة أسهل من هذه .. لكن هذه ليست مشكلة الكابوس .. لا تتعش أصلاً فهذا أفضل ..
إذن لم أمت .. فقدت الوعي لكني لم أمت ..
ثم أدركت أن الأمر لا يتعلق بكابوس ..
كانت الوسادة مبللة بالدم الجاف .. وحينما نهضت أدركت أن أعلى منامتي ملوث بالكامل ..
لقد كانت حقيقة ...
نهضت إلى المرآة فخذلتني قدماي وسقطت أرضًا ..
لقد .. لقد نزفت كثيرًا على ما يبدو .. لكن ليس بما يكفي لقتلي ...
تحاملت على نفسي حتى بلغت المرآة ووقفت أتأمل وجهي الشاحب .. وبالفعل رأيت ذلك الثقب القبيح فوق الوريد الودجي الداخلي وقد سدته جلطة دم.. كل ما حدث حقيقي ..
تذكرت الوطاويط مصاصة الدماء في أمريكا الجنوبية .. إن الناس يصحون من النوم ليجدوا ثقوبًا في أرجلهم أو أذرعهم ويصابون بفقر دم مزمن .. أما الحيوانات صغيرة الحجم فتموت ..
لقد كنت في قبضة مصاص دماء .. مصاصة دماء إذا شئنا الدقة ..
لكن من هو ؟..
ماذا أراد مني ؟
ثم –السؤال الأهم –لماذا لم يقتلني وقد كنت كطفل بين يديه ؟

-
تناولت وجبة مغذية وبعض أقراص الحديد .. عندما تكون نسبة صبغ الدم الهيموجلوبين أعلى من ستين بالمائة يمكن الاستغناء عن نقل الدم، وأنا أعتقد أن هذا هو الحال معي ...
ما سبب ما حدث ؟..

لم يستجد شيء في حياتي منذ فترة لا بأس بها .. لم أفتح توابيت .. لم أجد لفافة
غامضة .. لم أتعرض لمزيج سحري .. لم ألتهم طعامًا مريبًا .. لم ....
لم أجد قلادة مريبة !!!!
بل هذا حدث !
هرعت إلى مكتبي وبحثت عن القلادة .. منذ البداية أدركت أن هناك عملية تفتيش جرت
هنا .. اقتحام أدراج وعبث في كل مكان .. لكن ذلك الكائن أحمق .. أنا اخفي هذه الأشياء
في ذلك الدرج السحري الذي لا يعرف أحد سره .. إن هذا المكتب عتيق يخص أبا صديق
لي، وقد ابتعته منه .. في عصر الأب كان يخفي المجوهرات وأوراق العقود الثمينة في هذا
الدرج السري .. أنا لا اخفي فيه إلا لفائف التبغ حينما أصمم على الإقلاع .. وهذا يجعلني
قادرًا على الوصول لها برغم كل شيء .. ثم وضعت فيه تلك القلادة لأنني كنت اشعر طيلة
الوقت أنها دليل مهم وأن رجال الشرطة سيقبضون علي في أية لحظة بسببها ...
إذن هذا الكائن كان يبحث عن القلادة ..
عندما تفحص مريضًا وتجد زيادة في كريات الدم البيضاء فإن هذا يعني أن هناك نقطة بداية
تنطلق منها ... وأنا املك هذه النقطة ...
لابد من معرفة سر هذه القلادة ...
ثم ..
لحظة من فضلك ...
ألم يكن وجه ذلك المسخ مألوفًا ؟... ألا يمكن بشيء من الخيال أن تفترض أن هذا وجه
مدام (عفاف) ذاته وقد حل به تشوه مفزع ؟
عندئذ تكون القصة واضحة ...
تكون قد عادت لتسترد القلادة .. لكنها لم تجدها ومعنى هذا أنها ستعود ..
لكن . لابد أنني جننت تمامًا .. لماذا أتكلم كأن هذه حقيقة واقعة ؟.. امرأة شرسة تكره
الرجال وتنضم لجمعيات من كارهات الرجال، لكن هذا لا يعني بالضرورة إنها مصاص دماء ..
لو تعاملنا بهذا المنطق فالجزار اللص الذي أتعامل معه يتحول إلى غول ليلاً..
كنت مبلبل الأفكار .. بدلت ثيابي وتأكدت من أني أغلقت كل شيء ثم اتجهت إلى شقة
(عزت).. هذا هو موعد نومه ... سيجن عندما أوقظه لكني لا أجد مفرًا من هذا .. أعتقد أنني
سأقضي ليلتي عنده أو في فندق .. لا أريد أن أعيش هذه التجربة من جديد ...

استيقظ كما توقعت بالضبط .. كان مذعورًا مندهشًا متعجبًا .. وقد سمح لي بالدخول وهو يحك إبطيه.. كان في منامته التي تتكون من منامتين مختلفتين، وفي الداخل أعد لي بعض الشاي بالصراصير –مشروبه الخاص –وجلس يصغي لي وأنا احكي له أغرب قصة سمعها في حياته ..

قال لي أخيرًا وقد بدأ يفيق:

ـ'هجوم مصاص دماء لا يعني شيئًا بالنسبة لك على ما أظن .. فحياتك هي تكرار لذات الواقعة، لكني أرغب في أن أرى هذه القلادة ..'

مددت يدي في جيبي وعرضتها عليه ..

راح يتأملها في اهتمام بعض الوقت، ثم نهض بلا كلمة واحدة ..

عاد كما توقعت حاملاً أطلسًا ما .. يبدو أنه يشبه أطلس الشياطين الذي أملكه لكنه يريك نماذج من الفن القديم ..

راح يقلب الصفحات وفي النهاية توقف أمام صورة بدائية تحتل نصف الصفحة ..

ـ'هذا هو ما أردت أن أريه لك .. هذا النقش أشوري ..'

لم تكن صورة قلادة .. لكنها كانت تمثل بالضبط ذلك الوحش الذي تمثله القلادة .. لن اعيد النظر مرتين لأتبين هذه الملامح التي صارت مألوفة .. ثلاثة الرءوس .. الأسد ...

تحت الصورة كتبت بحروف كبيرة كلمة (أزموديوس)..

وتحت العنوان بحروف أكبر كتبت عبارة (زوج ليليث)..

ـ

الآن يتغير كل شيء ..

الآن أستطيع تجميع هذه الخيوط معًا ..

سألني (عزت) وقد أفاق تمامًا:

ـ'الكلام واضح .. هذه القلادة تمثل (أزموديوس) زوج (ليليث).. لكن من هي (ليليث) ؟'

قلت له أن يعد لي كوبًا آخر من الشاي لأن رأسي سينفجر ..

ومع الشاي الأسود الثقيل بدأت أتكلم .. كنت أكلم نفسي في الوقت ذاته:

ـ'في كل الثقافات السامية سوف تجد ذلك النموذج .. تجدها في الأساطير البابلية .. الأشورية .. العربية .. العبرية .. الأنثى مصاصة الدماء التي حرمت الأطفال فقررت أن تنتقم من أطفال الأخريات .. في اليونانية تجد كلامًا عن (لاميا) الرهيبة التي كانت ملكة ليبيا .. عند الأشوريين كانت هناك الشيطانة (لاماستو) التي تقتل الأطفال الصغار .. ربما وهم في أرحام أمهاتهم .. فيما مضى كانوا يفسرون أكثر حالات موت الأطفال والإجهاض على هذا الضوء .. طبعًا هناك موضوع طبي شديد الأهمية اليوم اسمه Sudden Infant Death أو SID والغرب ساهر الآن على بحث هذه التفسيرات .. قيل إن سبب هذا هو الإجهاد الحراري.. قيل إن الرضيع يفقد السيطرة على جهازه الحراري عندما ينام على بطنه ويدثر في الأغطية .. هذه نظريات، لكن القدماء وجدوا الحل بسهولة كما في نشأة

أية أسطورة .. مجرد ظاهرة طبيعية غامضة يخترعون لها قصة معقدة، وكان الحل هو أن الأخت (لاماستو) تتسلل لتفتك بالطفل .. لهذا كانوا يرسمون في غرفة نوم الطفل دائرة بداخلها آدم وحواء .. وكانوا يكتبون على الجدران : اخرجي يا ليليث ..'
هنا تدخل (عزت):
ـ'لحظة .. أنت تتكلم عن (لاماستو) فمتى ظهرت (ليليث) هذه ؟'
قلت له في غيظ لمقاطعتي:
ـ'قلت لك إنها نفس الكائن في عدة ثقافات .. لاميا .. لاماستو .. ليليث .. الأخوات إمبوسي أو مورموليسيا (الذئاب المخيفة)..كلهن الشيء ذاته على الأرجح .. قلت لك إنهم كانوا يضعون رسم آدم وحواء على الجدران مع كلمات تبعدها عن الطفل مثل (سينوي) و (سانسينوي)... لا احد يعرف معنى هذه الكلمات لكنها مفيدة على ما يبدو ..'
وفجأة توقفت عن الكلام وهتفت:
ـ'(سينوي) !!.. فهمت !... (يونيس) مقلوبة !!... لقد أنقذت الكلمات المتقاطعة حياتي أمس .. لو لم اكتب الاسم على الجريدة فلربما .... '
قال (عزت) في ملل:
ـ'لن أطالب بالتفاصيل لأنك جننت تمامًا .. فقط اكمل قصتك ..'
قلت له غير مبال باتهامه لي بالجنون:
ـ'قيل إن الطفل لو ضحك في نومه فالسبب هو أن (ليليث) في الغرفة .. وكان عليك أن تضرب شفتيه بإصبعك لتطردها ..'
نظر حوله وارتجف وقال:
ـ'الحق يقال إنها لقصة مفزعة .. إنني لا أشعر بأنني على ما يرام .. هذا هو التفسير الذي قالوه لضحك الطفل أثناء نومه ؟.. كانت أمي تقول إن الطفل يحلم بمن يشتمون أباه !.. أما لو بكى فهذا لأنه يحلم بمن يشتمون أمه !'
قلت باسمًا:
ـ'على الأقل قصة (ليليث) مهذبة خالية من الشتائم .. بالنسبة لـ (لاماستو) قيل إنها برأس أسد ولها جناحان كالطير .. أرى هذا مجرد تنويع على العنقاء .. وكانت النساء الحوامل يعلقن قلادة فيها صورة (بازوزو) عدو (لاماتسو) العنيد ..هذا لحمايتهن من الإجهاض طبعًا '
ثم أضفت:
ـ'لهذا كانوا ينصحون الرجال بألا يناموا وحدهم في الدار أبدًا .. يبدو أن (ليليث) لم تكن تكتفي بممارسة نشاطها مع الأطفال بل كانت تختار أحيانًا الرجال النائمين على ظهورهم لتمتص دمهم .. إن اسم (ليليث) غريب .. يقال احيانًا إنه مستوحى من اسم (ليلينو) - روح الريح –أو ليلاك التي تعني (الليل) في المخطوطات السومرية في (أور).. على فكرة كانت هناك مواجهة مهمة بينها وبين (جلجامش) عندما كانت تختبئ في شجرة الصفصاف على ضفة نهر الفرات .. وقيل إنها تعيش في الخرائب وسط بنات آوى والبوم والثعابين .. هؤلاء أسرتها ..'
سألني (عزت) وهو يحاول تذكر ما قلته:
ـ'قلت إن للقصة طابعًا عبريًا ..'

'هذا صحيح .. لكن الأمر يدخل هنا في مجموعة من التخاريف التلمودية .. فاليهود يعتقدون أن (ليليث) هي الأنثى الأولى –قبل حواء- التي رفضت أن تخضع لسلطة آدم .. فقررت أن تتمرد عليه من ثم عوقبت بأن صارت هذا المسخ.. على فكرة هناك اليوم جمعيات نسائية عديدة في إسرائيل ترفض سلطة الرجل وتعتقد أن الوقت قد حان للخلاص منه، وشعار هذه الجمعيات هو (ليليث) نفسها !.. كذلك يعتقد اليهود أن سيدنا (سليمان) عليه السلام شك في (بلقيس) ملكة سبأ عندما رأى أن ساقيها مشعرتان أكثر من اللازم وحسبها (ليليث).. أنت تعرف أنها كشفت عن ساقيها عندما خشيت أن تبتل بالماء وهي تدخل قصر البلور الذي بناه ..على فكرة .. هناك أساطير تتحدث عن كون (ليليث) عقيمة لا تنجب، وأساطير تتحدث عن أبنائها الأشرار مثلها الذين يطلق عليهم (ليليم).. '

ـ'وموضوع زوجها هذا ؟'

ـ'آه ؟.. تتحدث عن الأستاذ (أزموديوس) ؟.. إنه في العقائد اليهودية ملك الشياطين .. مهمته محددة جدًا هي تفرقة الأزواج .. إنه يفرق بين الزوج وزوجته ويحببهما في الفسق والزنا .. ويقال إنه طرد إلى أرض مصر بوساطة تعويذة من قلب وكبد السمكة اللذين تم حرقهما ..'

نهض (عزت) إلى المكتبة ليضع ذلك المجلد الذي جاء به وقال:

ـ'إن كل هذا مسلٍ، لكن لا تقل لي إن هذه الأساطير العبرية الأشورية ذات مصداقية .. لا تقل لي إن سبب الهجوم عليك أمس هو أن (ليليث) كانت مارة بالصدفة، فوجدتك نائمًا على ظهرِكِ ..'

'بالطبع لا .. لكني أجد رائحة مألوفة في كل هذا .. هناك من يحاول أن يعيد إحياء هذه القصة .. هناك زوجة متمردة على زوجها .. مجموعة من الزوجات الثائرات على الرجل .أم لا تريد أطفالها .. والسبب ؟... هناك قلادة عليها صورة ذلك الأخ الذي يفرق بين الرجل وزوجه وهذه القلادة تبحث عنها الزوجة لأنها تخصها.. هناك هجوم ليلي من كائن لا أحد ما يصفه إلا بأنه مصاص دماء .. ألا يدق هذا كله جرسًا ؟... '

ـ'هل تتهم الزوجة بأنها (ليليث) ؟'

ـ'أتهم شخصًا ما بأنه حول هذه الزوجة الرقيقة المطيعة إلى (ليليث).. وأراهن على أنها تحاول المقاومة .. لماذا لم تستعد أطفالها بعد ؟.. لأنها تخشى أن تؤذيهم .. إنها تتحول ولا حيلة لها في ذلك ..'

7-في الليل

كنت أشعر بالغباء والبلاهة لكني رحت اخط على كل الجدران في الصالة لفظة (سينوي)..
إن القصة كلها عجيبة فلا أقل من التعامل معها بأسلوب أعجب ..
تقرر أن أنام عند (عزت).. لكن إلى متى ؟
هل تملك هذه الليليث قدرات فائقة ؟.. هل سوف تعرف أين القلادة وأين أنا ؟... هل سوف تأتي إلي هنا طالبة القضاء علي ؟
لا أعرف ..
ترى لو استردت قلادتها فهل تتركني وشأني ؟
لا أعرف ..
إنه الثلاثاء .. عندما جاءت السابعة والنصف شعرت برغبة ملحة في أن أذهب إلى ذلك الاجتماع في المعادي ..
هكذا استقللت سيارتي ولم يكن (عزت) في الدار لذا أزمعت أن اذهب وحدي .. أريد أن أرى وجه (عفاف)..
كان المشهد شبيهًا بما عرفته منذ أسبوع، لكن عدد الحاضرات كان أقل وأعتقد أني كنت الرجل الوحيد .. هذا بالطبع لو التزمنا حدود الأدب فلم نتهم بعض النسوة هناك بالرجولة ..
رأيت مدام (عفاف) تمشي مع صديقتها المخيفة، فناديتها ..
نظرت لي في مزيج من الدهشة والمقت .. فجريت إليها ..
كنت أتكلم وأنا أنظر في عينيها .. ترى هل أنت حقًا ؟.. هل كنت أنت ذلك الكائن الشيطاني الذي جثم فوقي في الظلام يحاول انتزاع الحياة من أوردتي ؟.. لا أصدق ولا اربط بين الحدثين لكن كل شيء يؤكد هذا ..
أخرجت القلادة من جيبي وقلت لها:
ـ'القلادة التي حكيت لك عنها .. لقد وجدتها !'
انتزعتها من يدي في شيء من اللهفة .. ودستها في حقيبة يدها الصغيرة ..
سألتها باسمًا:
ـ'هذا النقش جميل .. أعتقد أنها قلادة أثرية !'
قالت بصوت كالفحيح:
ـ'إنها ميراث بالغ الأهمية .. تذكرني بعمتي .. أشياء من هذا القبيل .. أعتقد أن قيمتها المادية صفر لكنها لا تقدر بثمن معنويًا ..'
ساد صمت ثقيل ثم هزت رأسها واتجهت إلى منضدة مع صديقتها ..

هكذا وجدت نفسي أجلس وحيدًا عند أطراف المكان، ودنا مني ذلك الشاب الذي يعمل نادلاً .. لاحظت انه شديد الوسامة والجمال .. طبعًا .. ليس الرجال فقط هم من يشترطون سكرتيرة حسنة المظهر أو ساقية جميلة .. إن المعاملة هنا بالمثل .. طلبت منه قدح قهوة .. ثم سألته همسًا:

ـ'من صاحب هذه الفيلا ؟'

كان شابًا حزينًا لا يبدو سعيدًا بما يقوم به ... لذا قال همسًا:

ـ'هي ليست في مصر .. إنها تدعى مدام (ليلى).. لم أرها قط ..'

ـ'هل هي مصرية ؟'

ـ'ربما كانت تركية .. لست متأكدًا ..'

بدأت الجلسة .. ومن جديد ظهرت تلك الخطيبة المفوهة التي تشتم الرجال عشر مرات في كل جملة تقولها .. ومن جديد تصاعدت آهات الاستحسان ..

فيمينزم .. قلتها لنفسي همسًا وأنا أرشف القهوة ...

هؤلاء النسوة مجانين، وهن بالفعل يتخلين طواعية عن أقوى سلاح في ترسانة المرأة .. رقتها .. على كل حال بما أنني الرجل الوحيد هنا فقد صارت الشتائم تنهال على رأسي مركزة .. لا يمكن أن افترض أنها عامة .. بل هي مصوبة متعمدة ..

بعد ربع ساعة وجدت أن علي أن أرحل .. لابد أن أذني احمرتا إلى شكل ملفت للنظر ..

هكذا استقللت سيارتي عائدًا إلى الدار .. وفي هذه المرة لم أكن اعتزم النوم في شقتي .. ابتعت جبنًا وبيضًا وبعض الخبز، وقررت أن أعد العشاء لـ (عزت) على سبيل الشكر لاستضافتي ..

كان قد عاد إلى الدار فحكيت له تفاصيل ما حدث .. وقضينا أكثر الليل نتكلم في السياسة والفن .. وفي الرابعة صباحًا بدا أن علينا النوم مبكرين .. إن بوسعنا السهر حتى العاشرة صباحًا لكن لابد للمرء أن يعنى بصحته ..

هكذا دخل فراشه بعد إلحاح مني، وافترشت أنا الأريكة في الصالة .. خرج من غرفة النوم حاملاً لحافًا ثقيلاً يصلح للوقاية من الانفجارات النووية فشكرته والتففت به وتمددت..

وسمعت الأنوار تغلق قبل أن أراها تغلق ..

لابد أنني نمت نصف ساعة أو أكثر .. لأنني كنت هناك في ذلك الاجتماع العجيب أصغي للنسوة يتشاجرن بصدد كيفية القضاء على الرجال .. على غرار مزرعة حيوانات (جورج اورويل)... قدمان شيء سيء .. أربع أقدام شيء حسن .. شارب ولحية شيء سيئ .. الموت

للكروموسوم Y والمجد للكروموسوم X .. الموت لهرمون التستوستيرون والمجد لهرمون الإستروجين .. الموت لشريان الخصية والمجد للشريان الرحمي ..
الموت ....
ثم فتحت عيني ... إنني أرى المكان في هذا الضوء الخافت .. التماثيل العملاقة القبيحة التي يصنعها (عزت) طيلة الوقت .. أرى السقف و...
غريب هذا السقف .. إن به بقعًا كبيرة .. لابد أن ساكن الطابق العلوي لديه خلل في مغطس الحمام .. يجب أن يتنبه (عزت) لهذا قبل ان يتهاوى السقف فوق رأسه ..
لكنها تتحرك !
هذه البقع تتحرك ...!
دققت النظر أكثر ثم مددت يدي أتحسس بحثًا عن عويناتي التي تركتها بجواري على مقعد جوار الأريكة .. وضعتها على عيني .. لا مزاح هنالك ..
هذه ليست بقعًا..
إنه جسم عملاق يزحف على السقف .. أقرب شيء إلى بورص ضخم يزحف هناك وقد فرد أطرافه الأربعة متمسكًا بالسقف .. الفارق هنا أن هذا البورص في حجم الإنسان !
إن له شعرًا طويلاً متهدلاً... إن له جسم أنثى ...
(ليليث) !!..
إنها هنا !!
رأيت ذلك الجسد المرن ينزلق فوق الجدار متجهًا إلى غرفة النوم حيث ينام (عزت).. لا أعرف كيف ولا متى استطاع أن يدخل من فرجة الباب العليا.. وفي لحظة لم يعد منه فوقي إلا الذيل الطويل ..
وكان تصرفي أسرع من تفكيري ..
مددت يدي بسرعة إلى الباب وأغلقته بعنف .. فانغلق على الذيل العملاق..
وكان ما توقعته وخشيته ..
لقد دوى الصراخ المريع الذي يصم الآذان ...
صراخ لا يمكن وصفه .. صراخ تتمنى لو أنك مت كي يتوقف ولو ثانية واحدة ..
صرخة لا تأتي من حنجرة بل من أعماق أعماق التاريخ .. من سقر .. من أساطير العبرانيين والأشوريين والسومريين ..

وعلى الأرض سقط ذلك الشيء المقزز يتلوى ..
لقد قمت ببتر الذيل ..
ونهضت مسرعًا إلى منضدة أدوات النحت .. وضعت قرصًا من النترات تحت لساني أولاً، ثم وجدت ذلك الإزميل العملاق الذي كنت أعيش هاجسًا مزمنًا أن يسقط فوقي .. قبضت عليه بقوة ثم تناولت المطرقة وفتحت الباب ..
وفي الظلام وجدت ذلك الشيء المريع على الأرض يعوي ويصرخ كأنه صفارة إنذار، وهو يتحرك ألف حركة في الدقيقة .. كان يتلوى في كل اتجاه وقد فقد القدرة على الاتزان ..كان يحرك يديه وذراعيه في الهواء مقلوبًا على ظهره، وبسرعة لا تصدق .. ولم أفكر كثيرًا ..
غرست الإزميل في الصدر مباشرة وضغطت عليه .. ثم هويت فوق طرفه بالمطرقة كما كانوا يقتلون مصاصي دماء (هامر) في السينما ..
شيء بارد ينبثق ليبلل وجهي وثيابي ..
ثم همد الجسد أخيرًا ..
أين (عزت) ؟
صحت مناديًا آمره بأن يفتح النور لكنه لم يفعل ..
هكذا نهضت أنا بحثًا عن المفتاح .. وكان ما رأيته يفوق تحملي ...
على الأرض كان ذلك المشهد المريع الذي أتركه لخيالك .. وعلى الفراش كان (عزت) ممددًا على وجهه يرتجف وقد صار لونه أزرق تمامًا .. مددت يدي أتحسس نبضه فلم أشعر به .. جحوظ عينيه يوحي بالموت بالتأكيد .. إنها لم تمسه .. إنه باختصار يمر بأزمة (أديسون) المعروفة من فرط ما مر به من انفعال .. هكذا شأن المصابين بهذا المرض .. لا يتحملون أي انفعال من أي نوع فما بالك ب..
حاولت أن أتناسى الكابوس الراقد على الأرض وجريت إلى الصيدلية في الحمام .. أنا أعرفها أكثر منه لأنني أعددتها بنفسي .. زجاجة محلول ملحي وبعض حقن الهايدروكورتيزون .. جهاز محلول ..
لماذا هاجم المسخ غرفة النوم ولم يهاجمني ؟.. أعتقد لأن كلمة (سينوي) كانت في الصالة ولو فكرت جيدًا لكتبتها في كل ركن .. هذا طبعًا لو كانت لها أية قيمة ..
وعدت بسرعة إلى الفتى فعلقت جهاز المحلول إلى إطار النافذة فوق الفراش، وقمت بتثبيت الإبرة إلى عروقه ثم أفرغت حقنة في وريده ..
اتجهت إلى الباب لأبحث عن مزيد من العقاقير، هنا شعرت بتلك اليد تنطبق على ساقي .. يد قوية قاسية كأنها ملزمة النجار ..

هذه هي القاعدة . لا تعبر فوق جثة المسخ الميت أبدًا لأنه يصحو دائمًا في تلك اللحظة ..
هذه هي القاعدة وقد نسيتها ..
كان فزعي لا يوصف .. لكني في اللحظة التالية أدركت أنه لا ينوي الهجوم ..
كان ينظر لي بتلك العينين الحمراوين، ومن بين شفتين داميتين قال بصوت كالفحيح:
ـ'اسمها (ليلى) !.. لن يتركوك !!'
ثم تخلت عني اليد ...
عندها أيقنت بلا يدع مجالاً للشك أن هذا الشيء كان هو (عفاف) ذاتها ..
لقد كانت الملامح واضحة ... صحيح أن تشوهًا مريعًا أصابها لكنك تعرف كيف يظل الأنف في مكانه والنظرة في العينين .. لأسباب كهذه يعرفك صديق دراستك الابتدائية عندما يلقاك وأنت في سن المعاش ..
وعندما بدأ الدخان يتصاعد عرفت أن القصة انتهت .. قصة هذا المسخ على الأقل ..
فجأة بدا الجسد كقطعة فحم انتهى ما بها من طاقة .. فقط بقع حمراء تتوهج هنا وهناك،
ثم ينهار جزء .. يليه جزء آخر ..
عملية عضوية محكمة الهدف منها أن يصير هذا الشيء كومة من الرماد خلال دقيقة ..
سوف يكون التنظيف سهلاً.. لن تحتاج إلا إلى المكنسة وكنت أحسب الأمر سيكون اعقد ..
لكنها تركت أثرًا مهمًا أشكرها عليه .. وقد تناولته بحرص من بين الرماد ..
الدخان يملأ الغرفة ..
مشيت مترنحًا إلى الفراش حيث كان (عزت) يرقد ..
فتح عينيه ببطء والعرق يغرق الملاءة ويصنع له شاربًا صغيرًا على شفته العليا ..
قال بصوت هامس واهن:
ـ'ماذا حدث ؟'

8-مغامرة سخيفة

راح الأطفال يلتهمون الحلوى التي جلبتها لهم، وبعد قليل جاءت أم (سيد) حاملة صينية عليها كوب من الشاي فأخذتها شاكرًا .. بدت لي مسنة فعلاً بحاجة إلى من يعنى بها هي نفسها ..
كانت أم (إبراهيم) تجلس أمامي مستندة إلى عصا .. نموذج لما سيطلق عليه الأطباء فيما بعد اسم (متلازمة X).. وهو خليط فريد من مرض البول السكري وارتفاع دهون الدم والبدانة وارتفاع ضغط الدم .. أي كل ما من شأنه أن يقضي على القلب .. وكانت قد فقدت ابنها مما أضاف إلى آلامها ألمًا لا يوصف ..
قالت لي وهي تتحسس ظهرها كأنها تقوم بتجبيره:
ـ'الأم التي ليس لها خير في زوجها ولا أبنائها جديرة بأن تصير حطب جهنم .. فلتذهب إلى الجحيم ..'
قلت صادقًا:
ـ'من يدري ؟... ربما كانت مظلومة .. ربما كانت مريضة ..إن العقل يمرض'
قالت في عصبية:
ـ'مريضة ؟.. أنا مريضة لكن هذا لا يمنعني من القيام بواجبي .. هي تخلت عن زوجها وأبنائها بلا مبرر .. والآن اختفت تمامًا .. لا يعرف أحد في أية حفرة من جهنم ترقد، لكني لا أبالي ..'
واحمر وجهها وسعلت ..
كانت (عفاف) قد اختفت تمامًا .. الكل يبحث عنها والشرطة تفتش، لكن لا أثر لها .. وساد اعتقاد أنها عند واحد من أقاربها لا نعرفه .. زوجة كهذه يمكن أن تكون في أي مكان في أي وقت لأي مبرر..
أنا كنت أعرف . إنها كومة رماد في سلة مهملات (عزت)...
يجب أن أعترف أنني حزين جدًا لكل ما حدث .. لكن بربك ماذا كان بوسعي ؟.. هل يجب أن اتركها تمتص دمي لمجرد أنها كانت مضيفة مهذبة فيما سبق ؟.. لقد تحركت الأمور بشكل تراجيدي إغريقي جعل لا مفر أمامي إلا ما فعلت ..
أما (عزت) فقد استرد عافيته سريعًا ... ولم نتبادل كلمة عن الموضوع إلا بعد يوم كامل ..
انتهت الجلسة فنهضت شاكرًا معلنًا رغبتي في الانصراف .. كان هدف الجلسة هو أن أطمئن على الأطفال .. وقد فعلت .. وحاولت ان

ابعد عن ذهني فكرة أن هؤلاء الأطفال فقدوا أباهم ثم لا يعرفون أنهم فقدوا أمهم .. وأنني المسئول عن هذا .. لكني لا ألوم نفسي البتة ..
وعلى الباب أقسمت أن أنتقم ... سوف يدفع من فعل هذا كله الثمن ..
لكن من هو ؟

ـ'اسمها (ليلى) !.. لن يتركوك !!'
ـ'اسمها (ليلى) !.. لن يتركوك !!'

أدور بسيارتي حول تلك الفيلا في المعادي بعد منتصف الليل..
بالنسبة لي صار الأمر واضحًا تمامًا .. صاحبة الفيلا اسمها مدام (ليلى)... المسخ قال 'اسمها ليلى .. لن يتركوك'.. هل تجد اسمًا أقرب إلى (ليليث) من (ليلى) ؟...
لكن من هي وأين هي ؟
قال المسخ إنهم لن يتركوني .. هم كثير إذن .. ولماذا لن يتركوني ؟ .. واضح أن التخلي عن القلادة لم يكف لشطبي من قائمة الضحايا .. لهذا عادت في تلك الليلة .. لكن لماذا ؟..
حاليًا هناك سبب مهم هو الانتقام .. لكن لماذا عادت هي لي مع أن القلادة معها ؟.. ربما لأنني أعرف اكثر مما يجب .. ربما لأنهم حسبوني أعرف أكثر مما يجب ...
أنا أبدو مريبًا عندما أكون مريبًا .. هذا شيء معروف عني .. في الماضي كان أولاد خالي يسرقون المربى معي لكنني الوحيد الذي يُضرب لأني الوحيد الذي يبدو آثمًا ..
يبدو أن نظرات عيني قالت لهؤلاء النسوة بوضوح تام: انا أعرف كل شيء عنكن .. أعرف كل شيء عن (ليليث) ولسوف أقضي عليكن ....
هكذا لم يعد أمامي خيار .. أنا لا انتقم فحسب .. بل أنقذ عنقي كذلك ..
أشعر بالخجل من نفسي .. فلو كنت بطلاً من أبطال القصص المحترمين لتسلقت سور هذه الفيلا وتسللت إلى الداخل حاملاً كشافًا .. فإذا هاجمني أحدهم وجهت له ركلة ثم كتمت فمه كي لا يصرخ .. هذا لو كنت من أبطال القصص، لكنني شخص عادي جدًا أو أقل من العادي .. فماذا بوسعي أن أفعل ؟..
بوابة مغلقة عليها جنزير ضخم .. ولا توجد إضاءة بالداخل .. فيلا مهجورة هي .. هذا واضح تمامًا ..

واصلت الدوران ..
ثم أوقفت سيارتي في بقعة مظلمة من تلك البقاع الصالحة للسرقة .. لو عدت فوجدت زجاجها سليما لظننت أننا نعيش في المدينة الفاضلة ..
ترجلت ورحت أمشي الهويني فوق الإفريز المحيط بالفيلا .. شد ما يختلف الأمر في هذه الليلة الباردة الصموت عن الأمر في أمسيات الثلاثاء الصاخبة ..
رائحة نباتات .. رائحة الليل .. أدس يدي في جيبي وأواصل المشي ..
وهنا وجدت ما ابحث عنه ..
كانت هناك بالفعل بوابة صغيرة مواربة .. بوابة خلفية مفتوحة قليلاً وارتفاع السور في هذا الجزء منخفض .. هل هم حمقى إلى هذا الحد ؟.. يمكن لأي لص في يومه الأول أن يتسلل إلى الداخل ..
لا .. ليسوا حمقى ..
أعتقد أن هذا كمين .. هذا هو التفسير الأوحد ..
وقفت أنظر حولي .. هل أعود لسيارتي ؟.. كان الخيار مغريًا لكنه يحمل كارثة ضمنية: لن أعرف ابدًا .. أنا بالفعل أرغب في رؤية هذه الفيلا من الداخل ..
عدت للسيارة لكن ليس لأستقلها، بل لآخذ كشاف البطارية وأشياء صغيرة دسستها في جيبي .. ثم عدت إلى سور الفيلا ووقفت أرقب البوابة .. الإغراء الذي يجلب الندم .. أنظر للبوابة نظرة مدمن الخمر الذي تاب لله لكنه وجد زجاجة أمامه .. نظرة زئر النساء الذي استقام وهو الآن يقف أمام غانية تدعوه لها .. وفي الحالتين من المؤكد أنني سأندم ..
أعرف أنني سأندم .. لكنني سأندم أكثر لو لم أدخل ....
وفي هذه اللحظة جاء الحل بصورة قدرية ..

-
سمعت صوت الحركة وأنا واقف جوار البوابة موشك على الدخول..
فتواريت وراء شجرة عملاقة هناك خارج السور..
إن الصوت يأتي من الحديقة .. هذا واضح ..
هل هناك كلاب ؟...
عدت أدقق أكثر .. إن الظلام دامس لكني ظللت فيه فترة لا بأس بها، وهذا جعل شبكيتي شبكية قط .. إنني أرى ليس بوضوح لكن أرى ..
هذا الصوت ..
لا شك في أن هناك ما يحرك الأشجار في الحديقة .. لا يوجد نسيم .. إذن ؟

ثم رأيت ...
من جذع إحدى الأشجار العملاقة رأيت ذلك الجسم يخرج .. يتكور .. ثم يزحف على الأرض زحفًا ليتوارى في الظلام ...
أنا رأيت ذلك الجسم من قبل .. رأيته على سقف شقة (عزت).. غير أنني متأكد من أنه جسد آخر ..
وفي اللحظة التالية انساب جسد آخر ليخرج من شجرة أخرى عملاقة في الحديقة .. ومن جديد توارى في الظلام ..
أين يذهبون ؟

'#b^كانت هناك مواجهة مهمة بينها وبين (جلجاميش) عندما كانت تختبئ في شجرة الصفصاف على ضفة نهر الفرات#/b^'
هذا هو ..
التعديل الأشوري للتوابيت الشهيرة التي يبيت فيها مصاصو الدماء ..
إن هذه الكائنات لا تعيش في الفيلا.. إنها تعيش في جذوع الأشجار في الحديقة .. تكرار ممل لما كانت (ليليث) ذاتها تفعله في الأساطير .. قيل لـ (جلجاميش) إن شجرة الصفصاف تؤوي شيطانة .. هكذا هاجم الشجرة واقتلعها ..
أين يذهبن ؟
لم تطل دهشتي لأنني رأيت حافة السور تنتفخ في الظلام .. ثم فهمت .. إن كائنًا من هذه الكائنات قد تسلقه وانزلق من فوقه كأنه سحلية .. فبدا البروفيل عكس الضوء كأن السور ذاته ينتفخ ..
إنه الآن في الخارج !... خارج الفيلا !... في شارع المعادي الهادئ المظلم !!
فهمت الآن لماذا لم تكن هنالك كلاب .. لا يوجد كلب يتحمل هذا المشهد أو رؤية هذه الكائنات المخيفة ..
إنها تغادر لأن ساعتها قد جاءت ..
ساعة الغذاء أو ساعة القتل ..
مخلوق آخر ينزلق فوق السور متجهًا في طريق آخر ...
هناك أربعة من هذه المخلوقات تزحف الآن كالسحالي المهرولة عبر شوارع المعادي، وهدفها واضح .. سوف تتسلل إلى غرف نوم رجال ينامون على ظهورهم يعتقدون أن هذا كابوس ...ربما يموت الرجل مثل (إبراهيم) أو يفقد قواه ببطء ...

لكن النتيجة واحدة ...
ربما هناك واحدة من هؤلاء تنطلق نحو داري الآن ... لكنها لن تجدني ...
بالمناسبة .. ماذا عن حاسة شم هذه المسوخ ؟.. فلأمل أنها تتجه لهدف محدد ولا تبحث عن عابري السبيل .. فلنأمل أنها لا تشم رائحة الأدرينالين كما تفعل الأسود والنمور ...
وماذا عن الرؤية الليلية التي أثق بأنها تمتلكها ؟
يجب أن أفر الآن ...
لقد رأيت ما يكفيني ..

9-الحريق

وصلت إلى سيارتي فأدرت المحرك ..
إن الطقس بارد فلابد أنني سأجد بعض العسر في ... كرو كرو كرو !... حمدًا لله !
وهكذا انطلقت في شوارع المعادي الخالية وقدرت أنني يجب أن اصل البيت لأطمئن على (عزت).. رباه .. متى ينتهي هذا الكابوس ؟.. على الأقل هناك أربعة من هذه الكائنات تبحث عن شيء ما في الظلام .. هذا شيء يبعث القشعريرة حتمًا ..
بوم !!
لقد سقط الشيء على زجاج السيارة فأجفلت .. كانت صدمة قوية ارتجت لها السيارة، ثم بدأت أدرك ما هنالك ..
إنه واحدة من تلك الليليثات قد سقطت على الزجاج .. يبدو أنها كانت قد زحفت على جسم السيارة ثم تسلقت إلى السقف .. والآن هي تطل علي مقلوبة من أعلى ..
رأيت ذلك الوجه الشيطاني الذي ألفته والعينين الدامعتين .. مع أنبوب المص إياه الذي يخرج من الفم يحاول اختراق الزجاج .. دعك من أن المخالب تتشبث بالزجاج بما يوحي بأن لها ممصات في أناملها ..
سحلية آدمية ... لكن لينها كانت كذلك فعلاً..
القصور الذاتي .. رحت أحاول التذكر .. لو ضغطت الفرملة فأين يكون اتجاهها ؟.. هل تحطم الزجاج لتضربني أم تسقط إلى الأمام ..؟.. لا وقت للتدبر ..
إي ي ي ي ي ي ي ي ي !
هذه هي فرملة السيارة توشك على أن تخرق قاع السيارة خرقًا .. ورأيت الشيء يطير للأمام .. تذكرت الآن .. إنها اكتسبت سرعة السيارة لذا تواصل رحلتها للأمام ..
وسرعان ما تراجعت بالسيارة للوراء، ثم انطلقت مذعورًا فارًا من هذا المكان الكئيب ..
هل هلكت ؟
لا أظن ..
لو كانت فرملة سيارة قادرة على قتل (ليليث) لكان العالم مكانًا أجمل بكثير ..

ـ'نحرق الحديقة ؟.. هل جننت ؟'
كانت هذه من (عزت) وهو يركض ورائي غير فاهم ما يحدث .. وكنت أنا أحمل (جركن) الكيروسين ..
ألقيت بهذا الحمل في السيارة، ثم فتحت له الباب ..
قلت وهو يثب في المقعد بجواري:
ـ'لن أقوم بهذا العمل وحدي .. أريدك معي ..'
وانطلقت بالسيارة وسط الشوارع شبه الخالية ..
كان موشكًا على الخروج لبدء يومه بعد منتصف الليل كعادته، حينما قابلته على الدرج ..
وعندها طلبت منه خدمة أخوية بسيطة: أن يساعدني في حرق تلك الحديقة ..
رحت اشرح له ما رأيت في الطريق ثم أضفت:
ـ'لا يمكن أن أطلب هذا من جهة رسمية ما .. لا يمكن أن أفعله وحدي .. أريد من يساعدني .. أعتقد أن الحي كله سيصحو على هذه النيران .. يمكن بسهولة أن نجد نفسينا في السجن ..'
مد يده يفتح المقبض وهو يغمغم:
ـ'إذن هذا فراق بيني وبينك ..'
صحت في عصبية:
ـ'هل جننت ؟.. لو وثبت من السيارة للقيت حتفك ..'
ـ'ولو بقيت لدخلت السجن ..'
عدت أقول في صبر:
ـ'اسمع يا (عزت).. القصة لا مزاح فيها ... أنت تعرف طرفًا منها .. إنها فرصتي الذهبية أن احرق هذه الأشجار بينما تلك الكائنات في مهمتها المفزعة .. ثمة احتمال ٩٠٪ أن ينجح هذا في القضاء عليها .. في قصص مصاصي الدماء يلقون في التابوت الفارغ صليبًا كي يمنعوا مصاص الدماء من العودة .. هكذا يجد نفسه معرضًا للعالم الخارجي وضوء الشمس ..'
وصلنا إلى الفيلا الساكنة في الظلام ..
لم أتغيب كثيرًا لكن ....
ترى هل عادت تلك الكائنات ؟
أوقفت السيارة والمحرك دائر في أكثر بقاع الشارع إظلامًا .. وترجلت حاملاً الكيروسين ..
قلت لـ (عزت) الذي ظل غير قادر غير راغب في المغادرة:
ـ'سوف تقف بجوار السيارة وتراقب الطريق .. عندما ترى سيارة تقترب أو رجل شرطة ينوي خراب بيتي، فعليك أن تصدر صوتًا ينذرني .. كلهم في القصص يصدر صوت البومة .. أعتقد أنه يصلح ..'

قال في ضيق:
ـ'لا أعرف صوت البومة ..'
ـ'إذن أصدر صوت (عناق الأرض) ..!'
وقبل أن يرد كنت أدلف عبر البوابة الصغيرة المواربة إلى الحديقة ..
لو صح تقديري فلن أجد خفيرًا هنا .. أي خفير يقبل حراسة هذا الكابوس ؟.. يبدو أن هناك من يرتب مراسم الثلاثاء لكنه لا يقيم في الفيلا .. على الأقل لن يمسك بواب نوبي غاضب بتلابيبي ...
الحديقة مظلمة ساكنة .. كل شجرة تصلح كي تكون وحشًا يمد ذراعيه المخلبيتين نحوك.. لكني لا أجسر على استعمال الضوء ..
وصلت إلى أبعد ركن سمحت به شجاعتي .. هناك ركن مظلم تمامًا فلا أجسر على الدنو منه .. لا أعرف ما ينتظر هناك ...
بدأت أسكب الكيروسين في هستيريا ,, إن العقل يتخلى عني .. إنه الذعر .. إنه الـpanic كما تعبر الكلمة الإنجليزية ..
بسرعة .. بسرعة ...
أسكب الكيروسين في كل مكان وأنا أتقدم نحو البوابة التي دخلت منها ...
هذا الصوت ؟؟؟؟
صوت (عناق الأرض)!.. هل هذا صوته أم هو تصور (عزت) الأحمق لصوته ؟...
كنت قد وصلت إلى الخارج فطوحت الجركن ، ثم أشعلت عود ثقاب وطوحت به في اتجاه ما سكبته .. لحظة ثم بدأ الوهج الأزرق الخافت ... يزحف ببطء .....
ابتعدت بضعة أمتار عن سور الفيلا ونظرت إلى حيث كانت السيارة .. أين (عزت) ؟..
هذا أسخف وقت يقرر أن يفرغ فيه مثانته، والأسوأ أن يفعل هذا في مكان عام .. هذا ما افترضته ولم أره ..
ونظرت إلى اللهب الذي بدأ يشتد ثم يتمسك بقاعدة أقرب الأشجار لي ...
هل أفر الآن أم أراقب ما تم ؟... كانت قدماي تعملان بقانون خاص بهما، ولم تكونا على استعداد للرحيل من دون أن تعرفا ما تم يقينًا ..
فجأة رأيت جسمًا ملتهبًا يخرج من جذع الشجرة .. الفتحة التي تسكنها السناجب في القصص المصورة .. هذا سنجاب غريب نوعًا لا يوحي بجو أفلام (ديزني)..

إنه يثب ثم يتدحرج على الأرض كرة من النيران .. لا استطيع الحكم على حجمه لكنه بدا لي في حجم كلب كبير ..
ورأيت شجرة أخرى تشتعل ويثب منها شيء مماثل ..
كانت هذه هي اللحظة التي قررت فيها أن الخطر مزدوج .. خطر ما بالحديقة وخطر الناس الذين سيرون ما حل بالحديقة .. لقد اقتنعت قدماي وقررتا أن منطقي سليم ..
هكذا اندفعت إلى السيارة ..
أين (عزت) ؟.. لا يمكن أن يكون بهذا الغباء .. توقعت أن يكون بانتظاري متحفزًا مشدودًا كوتر القوس، لكنه ليس هنا . أعتقد ان التفسير يختلف عن كونه أحمق ..
ثمة شيء حدث له .. شيء مخيف على الأرجح ..
نظرت حولي ملهوفًا .. نظرت داخل السيارة . لا أثر له ..
الوهج يتعالى والنيران تترقرق كبحيرة ملعونة ..
وثبت إلى السيارة وأدرت المحرك ..
لو كان غبيًا فهو يستحق ما يحدث له .. فليقبض عليه أو فليعد من المعادي مشيًا على قدميه .. أي شيء .. أما لو كان شيء قد حدث له فلن أعرف إلا إذا ابتعدت ..
وانطلقت بالسيارة إلى شارع جانبي ..
وسرعان ما كنت أترك الحي الهادئ خلفي ....

10-النساء

لم يظهر (عزت) حتى الصباح ..
رحت أقضي الساعات في نشاط مثمر فعلاً ألا وهو قضم أظفاري ..
لا استطيع إبلاغ الشرطة .. ماذا أقول ؟.. لقد فقدته ونحن نحرق تلك الفيلا بالمعادي ؟ لو ابلغت عن اختفائه فلن اذكر تفاصيل .. فما قيمة هذا إذن ؟
هم لا يعرفون ما أعرف، وبالتالي من المستحيل أن يبدءوا بداية صحيحة ..
القصة كما يلي: لقد انفرد أحد تلك الكائنات بـ(عزت) وهو يقف جوار السيارة، وعلى الأرجح أطلق (عزت) صيحة عناق الأرض –التي لا يعرف كيف تكون –قبل أن يحمله الشيء مبتعدًا ..
فإلي أين ؟
أمسكت ورقة ورسمت عليها خطوطًا .. ما يشبه خرائط السريان المنطقي التي يرسمها المهندسون ومبرمجو الكمبيوتر .. بداية الخيط هي (عفاف).. (عفاف) تحولت إلى (ليليث) وصارت معها القلادة .. ثم قتلت زوجها .. من حولها لهذا المسخ ؟.. واحدة من تلك النسوة في المعادي.. هل هي (ماهي) ؟..أم (صافي) ؟.. أم (مي) ؟
هاته النسوة لم يأتين من فراغ .. هناك من حولهن .. إذن الخيط يبدأ من مدام (ليلى) التي لم ألقها قط، والتي حولت الفيلا إلى مأوى لمصاصات الدماء في الليل وقاعة اجتماعات لكارهات الرجل في أيام الثلاثاء ..
إذن لا مفر إذا ما اردت البحث عن بداية الخيط من مقابلة النساء ..
أنا أعرف شقة (ماهي) ولسوف أزورها ....
إنها لزيارة كريهة، لكن منذ متى أعتبر زيارة أي شخص نشاطًا محببًا ؟

-

كما قلت كانت (ماهي) إمرأة ممتلئة .. على قدر من الجمال لكن عدوانيتها لا تخفى على أحد، ولربما تضفي عليها عنصر جاذبية ما .. جاذبية النمور التي لا تقاوم ..
وكما قلت كانت شخصيتها أقوى وسنها أكبر من (عفاف)..

لقد زرتها على غير موعد، وقد أعددت في ذهني برنامجًا تافهًا لتفسير غرض الزيارة .. أولاد (عفاف)... واجبنا .. أم (إبراهيم)... الخ .. كلام سوف أحسن قوله مع تغطية مواضع الضعف في قصتي بالكثير من الـ .....م م .. هم م م !
في كتاب للناقد الأمريكي (والتر كير) يقول إن كتاب المسرح لم يعودوا يتعبون أنفسهم بالكتابة، لهذا بدلاً من أن يذكر كاتب المسرحية على لسان بطلته حوارًا يوحي بالحب مع التردد يكتفي بأن يقول:

ماري (بلهجة ذات معنى): أنا لا أرى هذا ..
فيرد البطل الذي يجب أن يقول كلامًا يوحي بالتجاهل القاسي:
شارل (بلهجة ذات معنى): أما أنا فأرى ذلك ..!

هكذا تصلح (لهجة ذات معنى) هذه لسد ثغرات التأليف وتلقي بعبء كل شيء على الممثلين .. وأنا أؤمن أن الـ (مممم) واللعثمة يمكن أن تداريا أمري كمؤلف أعذار فاشل ..
فتحت لي الباب فبدت في عينها نظرة نارية، سرعان ما حولتها إلى ضحكة لكن التوحش لم يختف ..
ثم دعتني إلى الدخول ..
دخلت وأنا أقول شيئًا عن محاولتي الاتصال لأخذ موعد وفشلي في ...
هنا وجدت الشلة كلها بالداخل .. (مي) و(صافي) وبعض الوجوه التي كنت أراها في اجتماعات المعادي .. لنقل إن العدد كان خمسًا أو ستًا ..
المهم هنا هو أن أكثرهن كن يضعن ضمادات على أذرعهن أو وجوههن !
قالت لهن بطريقة تمثيلية:
ـ'دكتور (رفعت إسماعيل).. صديق (عفاف) ..'
قلت مصححًا:
ـ'صديق زوج (عفاف) رحمه الله ..'
ـ'ليرحم الله الجميع ..'
جلست النساء يرمقنني بعدوانية واضحة.. بالفعل هناك الكثير من الحروق ... لا شك في هذا وله تفسير واحد .. لكن هل يعرفن دوري في القصة ؟
قلت في براءة:
ـ'خيرًا ؟.. ارى الكثير من الضمادات ؟'

قالت إحداهن وهي تشعل لفافة تبغ:
ـ'قدر ولطف .. '
وقالت (ماهي):
ـ'ألم تسمع حقًا ؟.. ذلك النادي في المعادي قد شب فيه حريق .. لولا ستر الله لاحترقنا جميعًا .'
ـ'هل تعنين أنكن اجتمعتن هناك بعد اجتماع الثلاثاء ؟'
قالت أحداهن في ثبات:
ـ'إنه ملتقانا .. ليس الثلاثاء إلا ندوة عامة ..'
وقالت (ماهي) وهي تجلس:
ـ'قدر ولطف .. طبعًا تعتقد الشرطة أن هناك فاعلاً.. هناك جركن كيروسين فارغ .. لكني أعتقد أنه لا يجب أن نلقي كل مسئولية على فاعل مجهول .. هناك القضاء والقدر .. كان مكتوبًا أن يشب حريق في هذه الساعة بالضبط ..'
حقًا !.. يا للإيمان !... غريب أن تسمع هذا الكلام من فم مصاصة دماء .. أعتقد أن فيه نوعًا من السخرية .. نوعًا من التهديد ربما ..
هنا سمعت إحداهن تئن .. نظرت إلى مصدر الصوت فوجدت إحداهن تكتم صرخة عن طريق منديل دسته في فمها .. ونظرت لها الأخريات بما معناه: اخرسي يا بلهاء !
ليس الأمر مقصورًا على بعض الحروق إذن .. هناك من فقدن صديقاتهن ..
أو فقدن بناتهن ؟؟؟؟

ـ

فجأة رأيت جسمًا ملتهبًا يخرج من جذع الشجرة .. الفتحة التي تسكنها السناجب في القصص المصورة .. هذا سنجاب غريب نوعًا لا يوحي بجو أفلام (ديزني)..
إنه يثب ثم يتدحرج على الأرض كرة من النيران .. لا استطيع الحكم على حجمه لكنه بدا لي في حجم كلب كبير ..

ـ

ـ'وماذا عن الأطفال ؟.. إن أم (إبراهيم).. م م .. لا اعرف له أقارب .. م م .. ربما قالت لك (عفاف) شيئًا .. م م'
هراء كثير من هذا النوع .. فقالت لي (ماهي):

'لا أحب أن نتكلم عن (عفاف) باعتبارها الفقيدة .. هي اختفت لكنها ستعود .. لهذا أنا أحافظ على الأطفال في غيابها لكني لا أحاول لعب دور اكبر .. لن أنساهم لو خطر لك هذا ..'
هززت رأسي موافقًا ...
في هذه اللحظة دخل المكان فتى يحمل صينية عليها قدح من القهوة .. طبعًا .لابد من خادم ذكر هنا .. رفعت عيني فأدركت أنه ذلك الفتى الوسيم الذي يقوم بخدمتهن في النادي ...
نظر لي نظرة ذات معنى وهز رأسه ثم وضع الطبق أمامي مع كوب ماء بارد وابتعد ...
رفعت القدح وعلى الفور رأيت تلك القصاصة الورقية المطوية التي وضعت بعناية تحت القدح .. ورفعت رأسي فوجدت النسوة جالسات على الأريكة المواجهة يتهامسن وقد بدت عليهن الجدية .. هكذا فتحت القصاصة بلحظة واحدة وبإصبع واحدة وألقيت نظرة:
ـ'بعد القهوة أطلب دخول الحمام!!'
وفي اللحظة التالية كانت القصاصة في كفي المغلقة .. ورحت ارشف القهوة ..
ماذا سيقدمه لي ؟.. معلومات طبعًا .. وعلى الأرجح إنذارًا ما ....
فرغت من القهوة فنهضت وقلت بتهذيب بولغ فيه وأنا أنظر للأرض:
ـ'سيكون هذا وقحًا .. لكني بالفعل أرغب في معرفة مكان الحمام هنا ..'
ـ'لماذا ؟'
ـ'ليس لتعلم قيادة السيارات .. أريد الحمام لأسباب فسيولوجية قوية'
همسة خبيثة ما مع ضحكة رقيعة خافتة، وأشارت لي نحو الممر الجانبي ..
كانت شقة صغيرة انيقة تم إعداد ديكورها بعناية .. وقد كان ستار أحمر يسد الممر، فأزحته جانبًا .. وفي نهاية الممر رأيت ذلك الفتى يقف في مطبخ صغير على الطراز الأمريكي وهو يقطع بصلاً بالسكين .. كيف عرفت أنه بصل ؟.. لأنه لم يكف عن البكاء والتمخط ..
سألته بصوت مسموع:
ـ'الحمام لو سمحت ..'
فأشار إلى غرفة على جانب الممر، ثم رفع إصبعه إلى شفتيه كي أسكت .. ومن دون كلمة واحدة تقدم ليفتح باب الغرفة الواقعة أمام

الحمام بالضبط ..وأشار لي كي أنظر وهو لا يكف عن استنشاق المخاط ..
وقفت على باب الغرفة ونظرت ..
للحظة لم أتبين شيئًا بسبب الظلام ..
ثم رأيت ...
رأيت غرف نوم نساء مهملات من قبل، لكن هذه تفوقت عليها جميعًا ..
إذن هؤلاء النسوة يقمن هنا إقامة كاملة ..لقد أحرق شخص ما الأشجار التي كن ينمن فيها .. وهذا الشخص أعرفه ... فهل يعرفنه ؟
لن اصف لك ما رأيت .. لا أحب وصف هذه الأشياء .. لكن الأشلاء المتناثرة تدل على أنهن يأتين بفرائسهن هنا أحيانًا .. أما هذه الأشياء المتناثرة فملاءات تم تدعيمها بالنشاء وعجين الورق لتتخذ شكل فجوات ... توابيت بدائية تسمح لكائن بأن ينام فيها .. عش بدائي جدًا .. بيولوجي جدًا .. تشعر بأنك رأيته من قبل في أي بيت عقارب أو ملجأ صراصير ..
كانت رائحة الغرفة لا تطاق لذا استدرت لأدخل الحمام ..وأنا اتحامل على قدمي ..
شهيق عميق .. يجب أن أسترد هدوئي السابق .. بعد ما غسلت وجهي نظرت لصورتي في المرآة ..
أنا الآن في شقة واحدة مع هذه الغيلان العبرية ..
هل يسمحن لي بالمغادرة ؟
خرجت من الحمام فوجدت الفتى يدس ورقة صغيرة أخرى في يدي ثم عاد إلى المطبخ دون أن ينطق حرفًا ..
وهكذا خرجت إلى الصالة ..
نظرت إلى الأرض كي لا أرى هذه الوجوه التي أعرف الآن جيدًا ما تعنيه ..
وقلت بتهذيب مبالغ فيه:
ـ'شكرًا على الحفاوة، لكن لابد من أن أرحل الآن ..'
قالت (ماهي) وهي تنظر لوجهي متفحصة:
ـ'هل انت على ما يرام ؟'
ـ'بالفعل .. أنا أبدو شاحبًا مريضًا عندما أرى سيدات جميلات ..'
لم تضحك أو تعلق .. فقط قالت إحداهن:
ـ'هكذا الرجال .. ينثرون عبارات الغزل وسط الكلام بلا داع ولا معنى .. فقط على سبيل رمي الشباك لعلها تلتقط شيئًا .. لم تقل (سيدات ذكيات أو مهذبات أو لطيفات) .. الجمال هو كل شيء وهو كل ما ترونه في النساء ..'

لم اكن مستعدًا لمناقشة (تمكين المرأة كمعيار للنمو البشري) مع تلك المسوخ، لذا اتجهت إلى الباب وفتحته وخرجت ..أغلقته خلفي كي لا تتبعني السيدة (ماهي) وتتفحص وجهي ..
ترى ماذا تحتويه الورقة ؟

11-تســــــلل

'أنا سجين هنا.. مذعور تمامًا .. إنهن يراقبنني جيدًا .. لكني سوف أتمكن من الفرار اليوم عندما يرسلنني في مأمورية.. قابلني غدًا الخميس عند منتصف الليل في فيلا المعادي.. سوف أخبرك كيف تصل لمدام (ليلى) وصديقك'

********* ********* ********

قرأت الورقة مرتين، وراق لي أن الفتى يستعمل ضمير المثنى ونون الوقاية بحذق (إنهن يراقبنني - يرسلنني).. يبدو أنه حسن التعليم .. ثم طويتها ورحت أفكر ...
بالفعل شعرت أن هذا الفتى سجين في هذا البيت .. لو كان بريئًا –وأنا ميال إلى هذا الاحتمال –فلابد أنه يعيش في كابوس مقيم .. يعنى بمجموعة من مصاصات الدماء وينظف لهن غرفتهن، وهو كأية جارية في قصر (تيمور لنك) غير قادر على الفرار..
إنه يعرف الكثير، ولا شك في أن التخلص منه صار محتومًا بالنسبة لتلك النساء بمجرد ألا يحتجن إليه..
كان الخميس هو اليوم التالي، لذا قررت أن أنتظر ..
فقط رحت أعمل خيالي قدر ما استطعت كي أعرف ما يمكن أن أواجهه وكيف أتقيه ..
لا أعرف يقينًا، لكني بحثت في كتبي حتى قرأت كل ما دون عن أسطورة (ليليث)، كما بحثت عن نسخة (الفردوس المفقود) لـ (ميلتون) ... تلك الملحمة الثانوية الحديثة التي تحاول أن تحذو حذو الملاحم القديمة .. إنها تحكي عن (ليليث) وهي مليئة بالخرافات طبعًا وتصطدم بما نعرفه دينيًا بشكل واضح، لكنها قد تقدم لي بعض النقاط ..
علقت على أكثر من جدار في شقتي لفظة (سينوي). لا أعرف إن كانت هي ما أنقذني في تلك الليلة أم لا، لكني لن اترك احتمالاً بلا تجربة ..
إنه الخميس ..
منذ بداية اليوم تتقلص معدتي توترًا ...

وعندما اقترب منتصف الليل حملت حقيبتي واتجهت إلى باب الشقة .. غير أنني لم أنس أن أجري بعض الاحتياطات السرية .. ما هي ؟... إذن كيف تكون سرية لو أخبرتك بها ؟.. على كل حال اتصلت بالأسطى (بدر) ليقسم لي على المصحف أنه لن يخذلني ......
لا أعرف إن كنت سأعود أم لا .. لكنني أعرف شيئًا واحدًا .. يجب أن أكون في المكان الذي يوجد فيه (عزت).. تحت الأرض أو فوقها .. أنا المسئول عما حدث له إن كان حدث له شيء ..

لم يبد لي الأمر مختلفًا عندما اقتربت ..
لا أعتقد أن الحريق أحدث ضررًا إلى هذا الحد ..
القمر ساطع والرؤية واضحة، لهذا عندما دنوت أكثر رأيت أن الحديقة تحولت إلى شيء مرعب .. بالفعل تكفل الحريق مع جهود رجال الإطفاء في تحويلها إلى مستنقع يختلط فيه الرماد بالماء . والفوضى العامة في كل مكان ... الأشجار صارت نسوة عجائز يلبسن الأسمال وينظرن للقادم في ريبة ..
لكن البيت سليم لم يمس .. هذا متوقع .. لقد أبلغ الجيران المطافئ فجاءت قبل أن تصل النيران للبيت ذاته ..
لابد أن هذه الكائنات التي احترقت تفحمت سريعًا فلم يفهم أحد حقيقة وجودها ..
درت حول السور الحديدي ببطء كما فعلت من قبل .. وفي النهاية وصلت تلك الفرجة .. تلك البوابة الصغيرة التي اجتزتها عندما أشعلت النار بالداخل ..
دخلت ..
في هذه المرة لم يعد للأمر طابع اقتحام التابوو .. بل أنا متسلل كأي واحد فضولي آخر دخل هذه الفيلا .. لقد انتهكت سريتها المقدسة .. الحريق جعل لها طابعًا عامًا ..
أين هو ؟
وفي الظلام رأيته .. كان واقفًا تحت شجيرة محترقة وهو يمسك كشافًا لم يفتحه.
ـ'د. (رفعت) ؟'
كان صوته خائفًا .. سرني هذا .. عندما أعمل مع أشخاص مذعورين أكثر مني اشعر بأنني على ما يرام .. ضعفهم يمنحني ثقة ...
دنوت منه وسط الأرض (السبخة) وقلت بصوت لم أتعمد إخفاءه:
ـ'نعم .. على فكرة لم أعرف اسمك بعد ..'

'(تامر)..'
وهو إسم شبابي جدًا كما ترى .. وقفت جواره أنظر للأشجار المحترقة من حولنا .. يبدو أنك لو اتكأت إلى شجرة واحدة لانهارت ..
سألته في الظلام:
ـ'هيا .. قل لي ما تعرف ..'
قال بصوت كالفحيح:
ـ'أولاً سأقول لك ما يعرفن .. كلهن يعرفن أنك من حرق هذه الأشجار ..'
ـ'قل لي شيئًا جديدًا .. توقعت هذا من نظراتهن وطريقة كلامهن ..بالمناسبة كيف تعيش مع هاته النسوة ؟'
ـ'لقد استغرقت كثيرًا حتى أعرف الحقيقة ., في البداية كنت أعمل في هذه الفيلا بتكليف من مدام (مها)... '
ـ'(ماهي)..'
ـ'نعم .. ينادينها (ماهي).. كانت هي التي تصدر لي التعليمات وكنت أتقاضى أجري منها ولم يكن العمل كثيرًا .. فقط تقديم الشراب والطعام لهن في اجتماعاتهن .. ثم حدث الحريق فطلبت مني أن أعمل في دارها .. هناك عرفت الحقيقة .. إن هؤلاء النسوة لا يخفين حقيقتهن .. وصدرت لي الأوامر أن أكتم السر وإلا فأن دمي لا ثمن له .. ووجدت أنني مجبر على البقاء . لن أخرج أبدًا ..أنا عبد لهن لا أنال أجرًا إلا طعامي، وأتلقى الضربات والإهانات .. عندما تهينك امرأة فبوسعك أن ترد، لكن أن يهينك كائن له أسنان كالخناجر وله لسان يشبه الممص فهذا يجعلك عاجزًا كطفل.. كنت مذعورًا إلى حد أنني لم أحاول الفرار .. كان الأمر يفوق الواقع .. لن تحميني الشرطة .. لن يحميني أن يوقعن تعهدًا بعدم التعرض لي في أقرب قسم شرطة .. إنهن فوق الجدران وفوق الزمن وفوق القانون.. كن يعرفن أنني لن افر ولن أجسر على ذلك، لذا كن يتكلمن بحرية .. وعرفت الكثير جدًا .. فلما ظهرت أنت في دارهن صممت على أن أنذرك .. وصممت كذلك علي أن أفر من غرفتي التي أنام فيها .. هبطت على المواسير وما أعرفه هو أنني لن أعود أبدًا ..'
كأن الأحمق يملك الخيار ..
ثم قال وهو يشغل كشافه ويخفي عدسته بقبضته كي يكون الشعاع رفيعًا واهنًا لا يراه أحد بالخارج:
ـ'الخبر الثاني هو أن مدام (ليلى) هنا ..'
ـ'وصديقي ؟'
ـ'صديقك ؟.. لا أعرف أين صديقك لكني متأكد انه معها ..'

'وأين المدام هذه ؟'
أشار بالكشاف إلى إحدى الأشجار المتداعية .. استطعت أن أرى تلك الفتحة قرب قاعدتها .. فتحة كبيرة تسمح بمرور إنسان ..
قلت له وأنا أرمق الفتحة الموحشة:
ـ'لا يبدو الأمر مريحًا ..'
ـ'إن هناك شبكة ممرات تحت هذه الحديقة وهي تقود إلى مكان المسخ .. سوف ننزل معًا '
دنوت من الفتحة وسلطت شعاع كشافي لأسفل .. هناك درجات فعلاً.. ليست درجات بل منخفضات صنعت في الوحل والحجارة لتسهل النزول لأسفل ..
هل يحتاج الأمر إلى أينشتاين ليعرف أن هذا كمين ؟
الفتى نفسه لا يريحني .. المفترض أنه خائف مذعور كالفأر لكنه الآن صار أشجع من أسد .. لا شيء يرغمه على العودة .. لا شيء يرغمه على النزول معي .. فلماذا صار فجأة مولعًا بمعاونة أخيه الإنسان ؟
وأنظر للفتى متمليًا في الضوء الخافت ..
هذه الملامح الجميلة الناعمة الخالية من الرجولة... هناك رجل وسيم لأنه رجل فعلاً مثل (جيمس ستيوارت) و(رشدي اباظة)، وهناك رجل وسيم لأن في ملامحه شيئًا من الأنثى على غرار (رودلف فالنتينو) الممثل الإيطالي القديم .. لكن هناك افتراضًا آخر .. لماذا لا يكون الفتى أنثى ؟.. مجرد أنثى قصيرة الشعر ذات صوت خشن قليلاً ؟..
هذا يضع النقاط على الأحرف، وتكون هذه كلها مجرد خدعة سخيفة من النساء .. منذ البداية كانت هناك فتاة من بينهن تتظاهر بأنها رجل ..
الورقة التي قدمت لي كانت بعلمهن جميعًا، وقد يعني هذا أن حفل الاستقبال جاهز ..
طبعًا لا يسمح الوقت بإجراء تحليل بحثًا عن جسيم (بار) أو الكروموسوم Y.. لا يسمح بإجراء أشعة صوتية للبحث عن المبيضين أو عد تفرعات الشريان الحرقفي الداخلي ..
هل أفر من هنا أم أقامر وأجرب ؟
سأجرب ...
وهكذا أشرت له كي ينزل ..
وتوكلت على الله، ونظرت حولي .. لا أحد يرانا...
هكذا اندسست في الفتحة بدوري ..

١٢- المواجهـــة

لا أذكر كم مرة في حياتي هبطت فيها درجات مظلمة على ضوء كشاف ..
لكن هذه المرة تختلف .. لأنني لا أكن ثقة للشخص الذي ينزل معي .. ثم أن النزول عبر جذع شجرة أمر رهيب نوعًا ..
الأمر لا يصدق لكنها الحقيقة .. فعلاً أنا الآن امشي في نفق تحت ارض الحديقة ..
كان أول ما طالع نظري هو تلك الجثة المحترقة .. جثة شيء أقرب إلى عقرب كبير .. صرخة مفزعة على الوجه المشوه ومخالب تحاول أن تقبض على شيء .. وذيل تقلص بالحرارة ..
إن المحترقين قد يتخذون وضع الملاكم الشهير بسبب تجلط بروتين العضلات وقصرها ..
يبدو أن هذه الكائنات عندما تحترق يتقلص ذيلها ..
لكن .. لماذا لم تتحول هذه الجثة إلى رماد وتتلاشى ؟.. في كل مرة أدرك أنني أجهل الكثير عن هذه الكائنات .. لا توجد قواعد ثابتة للعبة ...
أواصل المشي في الممر الرهيب ..ثم يبدو لي من المشقة أننا نصعد ....
في النهاية نخرج ...
لقد صرت على يقين من أن الفتى ليس نقي النفس .. لماذا لم يصبه الذعر أو يندهش من مرأى الجثة ؟.. ثم كيف بلغ هذه الدرجة من العلم وهو يزعم أن ما يعرفه عرفه من استراق السمع ؟.. هل استراق السمع إلى محادثة يجعلك قادرًا على المشي في مكان كهذا ؟
لكن المشهد الذي رأيته لا يصدق ..
إنني في ساحة واسعة .. سهل ممتد على مرمى البصر تملؤه خرائب غريبة الطابع ..
لون السماء قرمزي أرجواني موحش ..
ـ'أنت في عالم مختلف .. أنت في عالم (ليليث) ومن هذه الفتحة كانت تدخل وتخرج إلى عالمنا ..'
هناك يقف الفتى الذي اقتادني إلى هنا ..
والأرض غريبة مكونة من أحجار صلدة .. تذكر أن الصلادة تختلف عن الصلابة... الصلادة هي قابلية الفلز للخدش ... وقد كانت هذه الأرض كذلك ..
أشار الفتى إلى مجموعة من الخرائب تبدو أقرب إلى حجارة متراكمة فوق بعضها، وهمس:

'إنها هناك .. أنا لن اتبعك ..'
ونظرت من حولي فرأيت مجموعة من بنات آوى تقف ملتفة تنظر لي .. ومرق ثعلب من نوع (الفنك) مبتعدًا .... إن هذا هو وسط (ليليث) فعلاً... الأساطير تحكي عن أنها تعيش في الخرائب بين الثعالب وبنات آوى ....
ثم سمعت الزئير يتعالى من وراء الخرائب ..
في البداية ارتج علي.. ثم بدأت أفهم ..
من وراء الخرائب أرى الشيء يرتفع ثم يهبط ... يرتفع ثم يهبط .. والزئير يتعالى ..
لا أريد أن أرى لكني خمنت أن هذا الشيء هو الزوج الغاضب الذي انتظرني طويلاً.. (أزيموديوس)...
لو كان تصور القدماء له دقيقًا فإن هذا وحش ذو ثلاثة رءوس يمتطي أسدًا .. له ذيل ثعبان وقدما إوزة .. وهو غاضب أو جائع أو كلاهما ...أي مسخ هذا ؟...لا اريد أن أراه ..
سمعت حفيف الجناحين من خلفي فاستدرت ..
رباه ..!..
لم يكن الفتى امرأة مدسوسة علي لتقودني إلى الكمين ..
كنت أحمق عندما تصورت هذا ...
لقد كان هو (ليليث) ذاتها !!
-
إذن منذ البداية كانت مدام (ليلى) موجودة تراقب كل شيء .. كانت هي الفتى الذي يقدم لنا القهوة أثناء الاجتماعات، وكانت هي الخادم الذي يعنى بالنسوة في شقتهن ..
كانت هذه طريقتها لمراقبة الأمور .. وأعترف أنها طريقة بارعة ....
كان وصفها شبه دقيق في الأساطير وقد كنت أحمق عندما تصورت أنها واحدة أخرى من الكائنات التي قابلتها في هذه المغامرة.. اليوم أستطيع أن أعلنها لكل علماء الأساطير: (ليليث) هي (لاماتسو)..
لقد كانت الهول مجسدًا ..
لن اصفها لك لأن هذا ليس في وسعي .. فقط أذكر الفم .. نعم .. لا يمكن أن تنساه بسهولة ..ينفتح وينغلق بطريقة تذكرك بغالق الكاميرا.. مجموعة من البتلات أو الصفائح تتباعد ليخرج منها حشد من الممصات تفتش في كل اتجاه عن فريسة ماء ثم تعود لمخبئها ...

هذا كل ما أستطيع قوله لأني كنت في حال تستطيع ان تتخيلها .. وقلت لنفسي إن هذا كابوس بالتأكيد .. ليس من السهل أن أرى مشهدًا كهذا لذا هو على الأرجح من بنات خيالي ..

وقفت ألهث بعض الوقت ودسست قرصًا تحت لساني، ورحت أتلو آية الكرسي والمعوذتين مرارًا ..

ما كان جدوى تلك التمثيلية السخيفة إذن ؟.. كان بوسعك الانتهاء مني في ثوان .. سواء في بيتي أو في الفيلا.. لماذا إطالة الوقت ؟

كأنها سمعت أفكاري جاء صوتها المتحشرج مناسبًا جدًا لمنظرها .. لكنك لا تعرف كيف يخرج من هذا الفم العجيب:

ـ'الانتقام لبناتي أيها الفأر .. لن يشبعني إلا موتك عدة مرات .. أنت أحرقت بنات (ليليث) .. أحمق ككل رجل آخر..'

أنا الآن أعرف الإجابة .. ربما متأخرًا جدًا .....

هناك من جاء بالقلادة الرهيبة إلى مصر ومعها جاءت (ليليث) وبدأت تكون مجتمعها الخاص ... مجتمع كارهات الرجال الذي يتحول بسرعة إلى مجتمع مصاصات الدماء ..

رائحة عبرانية ؟... لم لا ؟... هل ثمة إصبع يشير إلى إسرائيل ؟.. ربما احد الحاخامات المتحمسين الذين يعتبرون العرب ثعابين ؟.. كل هذا وارد لكن لا احسبها ستخبرني به ..

قلت بصوت عال:

ـ'أنا لن أموت بهذه البساطة .. أنا مصمم على افتداء حياتي وصديقي .. لقد وجدت القلادة مع (عفاف) بعد احتراقها ولم أبقها معي طويلاً .. إنها مع صديق لي ولسوف يتخلص منها إذا لم أعد قبل الفجر .. عندما تختفي هذه القلادة لن تستطيعي تكوين مجتمعك هذا ..أعرف أنها مهمة وأن فتياتك يحملنها معهن بالتناوب .. ربما تستمدين وجودك منها .. كل ما أعرفه هو أنك لن تتركيها تذوب..'

قالت وهي تدور حولي بتلك الحركة السريعة:

ـ'أتحسبني غير قادرة على الظفر بها ؟.. إن القلادة تدعوني إليها حيثما كانت .. '

قلت وأنا أتراجع للوراء كي لا يحتك بي ذيلها:

ـ'هل تصلين بالسرعة المناسبة ؟.. إن الفجر يقترب ..'

ثم فتحت القميص لأكشف صدري وقلت:

ـ'لقد سطرت كلمة (سينوى) مئات المرات على صدري .. صدقيني لم يكن هذا سهلاً لكني فعلته .. أما الاحتياط الثالث فهو..'

وفتحت زرين آخرين .. هنا أطلقت زمجرة فحيحية مفاجئة كتلك الزمجرات الشيطانية التي تطلقها القطط عندما تهددك ..
كانت صورة (بازوزو) مثبتة بالشريط اللاصق إلى بطني ...
ـ'هل ترين ؟... أعتقد انك بحاجة إلى من يزيل عني هذه العلامات الواقية قبل أن تفتكي بي .. '
كنت لا أؤمن بهذا الهراء، لهذا احتفظت معي بمصحف ... لكني أردت ان أنفذ الأسطورة حرفيًا ..أن ألعب معها بالقواعد التي قالت الكتب أنها لها ..لم أترك ثغرات على مستوى الأسطورة وعلى المستوى الديني ....
احمرت عيناها حتى صارتا بلون الدم .. كأنها ثبتت ثمرتي طماطم بدلاً من محجري عينيها ..
ومن بين جفنيها انبثق الدم .. إن هذا المسخ احتفظ بالكثير من طباع الزواحف .. هذا الأسلوب يشبه اسلوب زواحف كثيرة ..
بالفعل مع غضبتها خرجت أفاع عديدة من شقوق الأرض وراحت تزحف مبتعدة ..
ورأيت (ليليث) تبتعد بسرعة البرق إلى ما وراء تلك الكومة من الحجارة ..
ترى هل كسبت المعركة ؟... ليس بهذه البساطة .. مستحيل أن أكون قد أخفتها ..
ـ
عندما عادت كانت تجر وراءها جسدًا منهكًا يئن ولا يقدر على التملص ..
تبينت على الفور من هذا التعس..
(عزت) !
هتفت في جزع:
ـ'لا تمسي هذا الفتى فلا ذنب له !!'
قالت بصوتها المتحشرج:
ـ'إن لم أستطع إيذاءك فلسوف ترى كيف أمزق صاحبك إلى أشلاء!.. لقد انتهت مهمته .. كان طعمًا لجلبك إلى هنا ..'
ومن فمها خرجت الممصات .. وامتدت ثلاثة منها إلى أوردة عنقه ..
صحت متوسلاً:
ـ'لا تفعلي !.. تذكري أنني أتحكم في مصير القلادة ..!'
ـ'سوف أحصل على القلادة !!'

ووجدت نفسي على الأرض وهي تجثم فوقي بينما تلك الممصات تندفع نحو عنقي، وهي تقول بصوتها المتحشرج:
ـ'لا تثق كثيرًا بلفظة (سينوي) ولا (بازوزو) أيها الفأر ..بوسعي أن اقضي عليك برغم ما أحطت به نفسك ..'
كانت ثقيلة خبيثة الرائحة .. وأدركت انها قوية حقًا ..
هل هذا صحيح ؟.. هل تستطيع مقاومة ما حاولت أن أحمي نفسي به ؟
كل شيء يؤكد ذلك .. إنني .. إنني ......
فجأة أطلقت صرخة مريعة جديرة بها ..
وتناثر شيء دافئ غريب على وجهي ...
وسقطت (ليليث) جواري وهي تئن وتتلوى لتكشف عن المشهد الذي توقعته .. (عزت) يقف وراءها وهو يوشك على أن ينقض عليها بالوتد المدبب مرة أخرى ..
لقد وجده على الأرض فتسلل وراءها وأولجه في القلب مباشرة .. من الخلف ..
تدحرجت على الأرض لأخرج المطرقة الثقيلة من حقيبتي، ثم زحفت إليها .. إلى ذلك الجسد المتلوي .. وصحت في (عزت) أن يغرس الوتد...
انغرس الوتد من جديد في الصدر فرحت أهوي عليه بالمطرقة ......
لكن ذلك كان أشبه بالتحكم في خنزير بري.. لقد تملصت كما يفعل المصارعون لحظة (لمس الأكتاف) فأسقطتنا على الأرض معًا .. الوتد في صدرها بالكامل لكنها تنهض ...
تنهض مترنحة كما يمشي الزومبي في (فجر الموتى).. وعدت ألعن الأسطى (بدر) في سري .. لقد تأخر .. تأخر جدًا .....
صحت في (عزت) وأنا أنهض:
ـ'احترس وإلا هاجمنا ذلك (الأزيموديوس) من الخلف !!'
قال وهو ينهض بدوره:
ـ'هل تعني ذلك الشيء المريع ؟.. إنها تكبله بالسلاسل .. !'
الآن كانت (ليليث) قد دارت دورة كاملة والوتد في صدرها، ثم عادت لنا .....
بعصبية انتزعت الوتد من صدرها فتدفق بعض السائل الشفاف، ورأيت بعيني الجرح يلتئم .. فجأة عادت الأنسجة تغطي ما كان تجويفًا قبيحًا ... المفترض مع مصاصي الدماء أن يتم كل شيء بسرعة .. الوتد .. الدق عليه .. قطع الرأس .. كل هذا في ثوان وإلا التأم جرحه من جديد ...
لقد كانت فرصة عمري وقد ضاعت ....

الآن تضحك فأرى الشيطان في عينيها الحمراوين .....
إنها تتقدم منا ...
إنها تفح كالأفاعي ....
إنها ....
فجأة أصدرت فحيحًا وصرخت في جزع:
ـ'القلادة !!'
ومن دون سابق إنذار اندفعت جوارنا مغادرة المكان .. دفعتني بقوة لا توصف فاصطدمت بـ (عزت) وسقطنا أرضًا.. وبينما أنا أقاوم الألم العظيم في رأسي رأيتها تنساب كالثعابين مبتعدة .....
عندها فقدت وعيي ..
....
....
....

وعندما أفقت من إغماءتي وجدت (عزت) ملقى على الأرض على بعد أمتار، وكان حيًا ..
بنات آوى يحمن حوله بآذانهن الطويلة، وثمة بومة تنعق في مكان ما .. لكن لا (ليليث)...لا (أزيموديوس) .....
دنوت منه وتحسست نبضه ..
سوف ينجو ..
سوف ينجو...........

خاتمــة

عندما فرغ (عزت) من إفطاره عرفت أنه نسي كل ما حدث له ...
لقد كانت فترة غيابه سلسلة من الهلاوس وفقدان الوعي .. فقط يعرف أن شيئًا ضخمًا هاجمه وهو ينتظرني خارج الفيلا، وأنه فقد الوعي .. ثم كان يصحو من حين لآخر ليشعر بأن الثعالب تتشممه أو يرى خرائب يبدو من ورائها وحش له ثلاثة رءوس .. كل هذه كوابيس .. هو مؤمن بهذا .. ومن ضمن هذه الكوابيس أنني جئت لأنقذه .....
أما أنا فقد كنت أعرف ما حدث معي ...
عندما صارت الساعة الثالثة صباحًا دون أن أتصل بـالأسطى (بدر) قام بوضع القلادة في الفرن الذي يقومون فيه بتذويب الرصاص .. من المفيد أن يكون لك صديق مخلص من (الصنايعية) الذين عالجتهم من مرض مزمن .. كنت أعرف أنني أستطيع الوثوق به، لكني جعلته يقسم لي على المصحف أنه لن يتجاهل طلبي، ونقدته مبلغًا محترمًا من المال على ان أنقده مثله إذا نفذ تعليماتي ...
بدا له الأمر غريبًا لكنه افترض أن الأمر يتعلق بعمل سفلي ما . لم يسأل كثيرًا .. وهكذا قام لي بخدمة العمر: ظل ساهرًا في المقهى ليلة الخميس، ولم يغلق الورشة بانتظار مكالمتي، فإذا اتصلت به كان بها ويمكنه النوم .. أما إذا لم أتصل فعليه أن يذوب القلادة ... أعتقد أنه فعل ذلك في اللحظة التي كانت (ليليث) توشك على الهجوم ..
قال لي:
ـ'بيني وبينك دخنت الكثير من المعسل وشيئًا ما أعطانيه الولد (خميس).. راحت علي نومة .. لكني استيقظت فجأة لأجد أن الساعة الثالثة والربع ... هرعت إلى الورشة وأخذت بيدي تلك القلادة ... لا أعرف إن كنت واهمًا أم لا .. لكني رأيت مجموعة من الكلاب تحيط بالورشة وعيونها تتقد شررًا .. ربما لم تكن كلابًا .. ربما كانت بنات آوى أو ثعالب .. لا أعرف .. ثم ألقيت بالقلادة في الفرن وفي اللحظة ذاتها خيل لي أنني أرى امرأة شكلها مخيف تقف في الورشة معي وتمد يدها تحاول منعي .. لا أعرف .. رأيتها لجزء من ثانية ثم تلاشت .. إما أن هذا هو تأثير السهر والمعسل .. أو أن هذه القلادة فيها سر .. ربما هي بسم الله الرحمن الرحيم ..'
قلت له وأنا أربت على كتفه في رفق وامتنان:
ـ'دعك من هذا .. لتنس الموضوع .. فقط تذكر أنك أنقذت حياتي ..'

أما لماذا لم افعل هذا قبل المواجهة فالجواب سهل: كنت بحاجة لأن ابقي القلادة سليمة للمقايضة على (عزت).. لو أدركت (ليليث) أن القلادة انتهت فلربما فتكت به .. وقدرت أن الساعة الثالثة تعني أن المقايضة فشلت وإنني في خطر حقيقي وهو ما حدث فعلاً...
هذه القلادة كانت تعني الكثير لها كما هو واضح ....
وعندما تلاشى الخطر وجدت أنا و(عزت) أن بوسعنا العودة من ذات الطريق الذي جئت أنا منه ..
ترى هل رحلت حقًا ؟...
هل ماتت ؟
أعتقد ان الاحتمال الأول هو الأدق .. إنها تحاول البدء من جديد .. تحاول استعادة توازنها .. لكنها ستجرب هذا في بلد آخر أو زمن آخر ....
بقى أن أقول إن النسوة اللاتي عرفتهن في اجتماعات المعادي تفرقن..
وحينما قابلت (ماهي) ذات مرة في الشارع شعرت بأنها تغيرت كثيرًا جدًا .. وقد أخبرتني بأنها ستتزوج بعد أسبوع .. لم لا ؟.. إن تجربة واحدة فاشلة لا تعني الحكم على جنس الرجال كله .. ربما ليسوا جميعًا مجموعة من السفاحين والقتلة والأوغاد ..
شعرت بأنها نسيت كل شيء عن تلك الفترة .. ليس من مصلحة احد تذكيرها بأن تمردها على الرجال كان يتضمن التسلل لحجراتهم ليلاً وامتصاص دمهم ..

قلت لأم (إبراهيم) وأنا أملس على رأس ابنه:
ـ'أعتقد أن عليك أن تتصرفي على أساس أن ..'
ثم تذكرت ان الطفل معي فطلبت منه أن يرحل، فلما توارى قلت لها:
ـ'تتصرفي على أساس أن (عفاف) لن تعود ..'
قالت مفكرة:
ـ'ترى أين هي ؟.. داخل مصر أم خارجها ؟.. فوق الأرض أم تحتها ؟'
قلت:
ـ'لن تحصل على إجابة .. سوف أساعدك في إنهاء إجراءات الميراث .. إن الفقيد فعل كل شيء كي يحظى أطفاله بدخل محترم .. وهذا ما يجعلنا مطمئنين .. سيكون لديهم المال وستعطينهم أنت العناية والحنان ..'
رشفت ما تبقى من قهوتها وقالت:
ـ'كان الفقيد وغدًا !!'

ـ'بو شش ش ش ش !'
كان هذا صوت القهوة التي انفجرت من فمي فشرعت أجففها، وأنا أقول:
ـ'معذرة .. نحن نتحدث عن (إبراهيم) .. ابنك !'
قالت في غل وهي تضع القدح:
ـ'وأنا أتحدث عنه كذلك .. نعم هو ابني لكنه وغد .. لماذا يعتقد الرجل أنه بمجرد أن يجمع المال قد حقق المطلوب منه ؟.. ولماذا يترك كل التفاصيل المزعجة الأخرى للمرأة ؟.. التربية والنظافة والطهي والغسيل .. كل هذا على عاتقها .. أما هو فيمرح خارج البيت كما يشاء مادام يعرف أنه سيناولها بعض الأوراق المالية لدى عودته'
ثم أشارت لي بإصبع أتلفه النقرس وهتفت:
ـ'أنتم معشر الرجال تستحقون الجلد بالسياط!'
كنت أشم رائحة مألوفة في كل هذا ...
رائحة مألوفة ..
متى بدأت العدوى ؟
من أين جاءت ؟...
هل ما زالت (ليليث) في مصر ؟
حقًا لا أعرف .. ما اعرفه هو أنني اكتفيت من هذه القصة، ولن أجتاز هذا المدخل مرة أخرى ..
فلنأمل أن تكون السيدة أصيبت ببعض الخبال لا أكثر .. هذا يفسر الأمور ويريحني .. مجرد خشونة من امرأة أنهكها المرض والمتلازمة X..

ـ
إن بيت الأشباح في مدينة الملاهي يغدو مخيفًا بعد ساعات العمل ..هل تعرفون السبب ؟.. ولكن هذه قصة أخرى..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

الكتيب الالكتروني القادم

أسطورة بيت الأشباح